باطن الاثم
الخطر الاكبر في حياة المسلمين

بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ولي كل توفيق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فأن الحقيقة ـ كما يقولون ـ مرة !.

ولعل أهم أسباب مرارتها، ما يترتب على كشفها وتجليتها من نقد موجه، وتفنيد لبعض ما هو واقع من أمور الناس.

ولا يخفف من هذه المرارة ـ ولا أقول: يقضي عليها ـ إلا أن يتسم السبيل إلى كشف الحقيقة بإخلاص تام لها وتجرد كامل عن أي غرض من بين يديها ومن خلفها.

فإذا تمسك الباحث عن الحقيقة بهذا السبيل، فقد أعذر أمام الله وعبادة. ولا عليه أن يجد نفسه عاجزاً عن قلب طبائع الأشياء. وتحويل مرارة الدواء إلى سكر حلو مذاب. فأن الحقائق مهما كانت ثقيلة أو مريرة في ظاهرها،أجدى نفعاً للفرد والمجتمع من عذوبة التهرب منها أو من حلاوة المخاصمة لها.

وحسب الباحث عذراً ـ إذا كان متمسكاً بهذا السبيل ـ أنه لا يلزم الناس من أعباء الحق إلا بمثل ما يلزم به نفسه، ولا يذيقهم من مرارة ألا ما قد ذاقه من ذلك قبلهم ، وأنه لا يجعل من نفسه نبياً معصوماً ينثر نقده بين الناس من فوق منبر العصمة، ثم يمضي ينزه ذاته من ذلك كله. بل هو يجعل من رقابته لذاته ونقده لأخطائه، منطلقاً لتحذير الآخرين أن لا ينحرفوا انحرافه ولا يخطئوا كخطئه، ومادة نصيحة ورشد يمتع بها أصحابه وإخوانه كما قد أكرمه الله بأن يمتع بها نفسه.

* * *

هل في هذا الكلام شائبة ضلال أو وهم ؟ !.

لقد كان ذلك هو الأساس الذي أقمت عليه أبحاث هذا الكتاب. ولقد أردته ـ والله يشهد ـ نصيحة أسديها إلى نفسي قبل أن أتوجه بها إلى غيري.

ومع ذلك فقد ضاق بعضهم ذرعاً بهذه الأبحاث، لأنها تنحط بالنقد عليهم وتتجه بمحاولة التقويم إلى واقعهم. وكان لهذا الضيق انعكاسات غريبة لا مجال لبيانها ولا فائدة من الحديث عنها.

ولقد قيل لي عن موقف هؤلاء الناس. فقلت ـ وهو الحق الذي لا أعلم بديلاً عنه ـ:

أما العصمة، فلا أعلم بشراً يتصف بها بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام !..

وأما إباء النصيحة والاستعلاء عن قبولها، فلا أعلم مسلماً صادق الإسلام يرضى لنفسه أن تتربع على مثل هذا العرش من الكبرياء !..

وأما الأسلوب والمنهج الأخلاقي في إنفاذها، فليس أمامنا في ذلك ألا منهج النبوة وأسلوب أفضل الورى محمد عليه الصلاة والسلام:

لقد كان ينصح، ويعلم أصحابه أن الدين النصيحة. وكان ينتقد، دون أن يذكر أسماء أو يجرح أشخاصاً، وإنما يقول: ما بال أقوام... ثم لا يبالي أي موقع وقع نقده هذا من نفوس الناس كلهم.

وأما احتمال الخطأ في بعض ما قد كتبت، فقد أرهفت السمع له، لعلي أتلقى تصويباً لخطأ ارتكبته، أو تذكيراً بقيد نسيته، أو تنبيهاً لحقيقة فاتني علمها. ولكني لم أسمع شيئاً من ذلك كله، اللهم الا ما يتعلق بالبحث الذي جعلت عنوانه " مشكلتنا أخلاقية وليست فكرية ". فقد جاءني من يقول: بل مشكلتنا فكرية وليست أخلاقية !..

وجاءني من أوهموه بأنني أدعو الى أخلاق عارية عن كسوة الفكر والعلم، وأعلن لهم أنهم ليسوا بحاجة الى فكر ولا علم !..

وأقول: انني لم أكتب كلاماً يدل على هذا أبداً.

والذي يستخرج المعاني من الألفاظ بمقياس اللغة ودلالتها لا يستخرج من كلامي في ذلك الفصل شيئاً من هذا الباطل الذي لا يمكن أن أقوله.

وعلى كل فسأزيد هذا البحث وضوحاً في هذه الطبعة ان شاء الله، وأعلق عليه بما يرد عنه غاشية أي وهم أو لبس.

واذاً، فأنا الآن أعيد طبع هذا الكتاب وأنا أشد ما أكون رضاً وابتهاجاً بتوفيق الله في ذلك، بل انني أعيد طبعة وأنا أكثر ما أكون شكراً لله أن جعله واسطة نفع واصلاح لكثير من المسلمين، ولعلي كنت أزال أحوجهم الى هذا النفع والاصلاح.

أعيد طبعه، وان أحداث المسلمين ومصائبهم المريرة، لتزيدني كل يوم يقينا بأن المسلمين اليوم مشدودون الى الوراء تفرقاً وضيعة وهواناً، بما ينطوون عليه من " باطن الاثم " أكثر مما يصطبغون به من ظاهر المعاصي والآثام.

أعيد طبعه، وان مرارة الواقع الاسلامي يزيدني يقيناً كل يوم، بأن مشكلة المسلمين هي النكبة التي أصابتهم في أخلاقهم، وليست أي أزمة وهمية في ثقافتهم. هذا مع اليقين بأن المسلمين لا يحيون بدون ثقافة ولا علم، كما لا يعيش المريض بدون شمس ولا هواء، ولكن الشمس والهواء شيء والدواة الذي يصلح حال المريض شيء آخر.

أعيد طبعه، وأنا أشهد الله، أنني لا أبتغي بما قد كتبت حقداً أنفثه، أو ضغينة أغذيها، أو اشهاراً لحال أي فئة أو جماعة. كيف وان ذلك يمثل أسوأ ما يدخل في " باطن الاثم " مما لم أكتب هذه الأبحاث الا للتحذير منه وتطهير القلب من رياحه وآثاره. ولكني أرى مجتمعاً يسوده هذا البوباء الخطير (والمجتمع ليس الا أفراده) فأنا أحب أن ألفت نظره الى هذا الوباء، في حديث لا تفسير له ان شاء الله الا أن يكون نصيحة لله ورسوله ولعامة المؤمنين.

أعيد طبعه، وأنا أبسط يدي الى علام الغيوب، في ضراعة واجفة، أدعوه أن يحققني والمسلمين بما قد جعله أخص مزاياهم وصفاتهم:

(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم).

مقدمة الطبعة الأولى

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وصلى اللهم أفضل صلواتك على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد.

سألتني يأخي المسلم في حرقة وألم:

المسلمون اليوم أكثر منهم في العهود القريبة السابقة ومظاهر سعيهم وأعمالهم الاسلامية أبرز منها في أي عهد مضى، والمكتبات تزخر بالكتب الاسلامية المختلفة الحديثة كما لم تزخر بها في أي حين من قبل، والناس يقبلون عليها اقبالاً رائعاً غير معهود، ومع كل ذلك فان سعيهم في طريق المجتمع الاسلامي وحكمه يرتد عائداً الى الوراء، ويسير مضطرداً الى الخلف !!.. فما سر هذا التناقض العجيب، وكيف أمكن للمقدمات الطبيعية أن لا تثمر نتائجها ؟!..

ولقد قلت لك في الجواب: انهم أشتات متفرقون متدابرون، والفرقة بلاء يفسد كل صالح من الأعمال ويقطع عنه أكثر نتائجه. فكيف اذا تحولت الفرقة الى تدابر ؟!..

وقلت لي: ففيم يلتقي أهل السوء على باطلهم ثم يسيرون في تعاون وتساند رائعين، ولا يجتمع أهل الصلاح على حقهم ويظلون ويظلون متباعدين متدابرين ؟!!..

فأجبتك: ان أهل السوء أخلصوا في السعي الى باطلهم وعلموا أنهم لن يصلوا اليه الا باجتماع وتناصر، ولم يكن لأحدهم من وراء ذلك الباطل مأرب خفي يناقضه، فجمع بينهم السعي في الطريق، وألف بينهم العلم بضرورة التعاون، ومنعهم عن التدابر أنهم جميعاً صادقون في السعي الى باطلهم المشترك، وان كانوا يتفاوتون في القصد الى مآرب أخرى من ورائه.

وأما أهل الصلاح فلم يخلصوا في السعي الى حقهم اخلاص أولئك الساعين الى باطلهم. اذ كان حق هؤلاء جاثماً في نهاية طريق من الضنك والحرمان، وكان باطل أولئك قابعاً وسط هالة من مطامع النفس وأهوائها. فكان في أهل الصلاح من تحلى بالحق والدعوة اليه ظاهراً، وراح يتلمس مطامع نفسه وأهواءها باطناً. وكان فيهم من تبنى الحق كلاماً يردده في المجالس أو خطباً يدبجها في المحالف، فاذا كلفه الحق شيئاً آخر كالتنازل عن بعض حقوق نفسه أو تحمل بعض مشقات الحياة، تخلى وابتعد..

واذ كانت هذه الظاهرة فاشية فيما بينهم، فقد زالت أو قلت الثقة ببعضهم. أصبح تلاقيهم وتعاونهم في طريق الدعوة الى الحق محصورين ضمن دائرة سطحية ضيقة. فهم لا يكادون يتجاوزونها الا وقد استيقظت فيما بينهم عوامل التفرق بل التدابر في كثر من الأحيان.

فأنا أذكر يا أخي المسلم أنك استغرقت ـ لدى جوابي هذا ـ في دوامة من الصمت الأليم، ثم نهضت مستأذن ومضيت شارداً مفكراً.

وأما أنا، فقد عد الى هذا الذي ذكرته لك، فرأيت اني لم أفعل بذلك شيئاً سوى أني أسلمتك الى تيه مطبق من الهموم لا ملاذ منه ولا مفر، ولقد كنت في هذا كمن نبه مريضاً إلى الأدواء الخطيرة المستحكمة في كيانه دون أن يشير بكلمة واحدة إلى العلاج المفيد أو المخفف من آلامه.

وأعوذ بالله من أن يكون كلامي تثبيطاً لنفس وإماتة للأمل، فأكون بذلك قد زدت إلى الداء داء آخر شراً منه وأخطر.

ولقد أسلمني هذا الشعور إلى مثل عذاب من علم أنه قد زاد البلاء شدة ثم مضى متخلياً عنه، وقد كان أجدر به إذاً أن لا يدنو إليه ولا يعالجه بشيء، وإنه لفعل كثيرين غيري أيضاً من الناس.

ثم رأيت أنه لا ينجيني من هذا الشعور سوى أن أتبع ما ذكرته لك، برسم الدواء. ولئن فاتني أن أحدثك به في المجلس الذي قمت عنه شارداً مغموماً فلن يفوتني أن ألحقه بك حيثما كنت في هذا الكتيب الصغير، عسى أن يقع في يدك فينقلب همك إلى سعي وعمل إيجابي في سبيل التعريف بهذا الدواء والعمل على استعماله. وإنه لدواء مر المذاق، ولكن الذي يخفف من مرارته إنما هو حلاوة الإيمان.

وما إظن إلا أننا جميعاً مؤمنون بالله إلهاً واحداً لا شريك له بيده الخير والملك، وهو على كل شيء قدير.

والدواء الذي أريد أن ألفت نظرك إليه موصوف في كتاب الله تعالى. ومشروح في هدي نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم. إنه التخلي عن باطن الإثم.

وربما سألت: وظاهر الإثم ؟ !.. اليس التخلي عنه أيضاً جزءاً من الدواء ؟..

والجواب: إنه جزء لا ينفصل عنه، ولكن الناس جميعاً على علم به، وربما كان الكثير منهم متمسكاً به.

فالتنبيه إليه أمر لا جديد فيه ولا حصيلة منه. أما الذي يظل أكثرهم في ذهول عنه فهو هذا الجزء الآخر وهو الذي إن أهمله المسلمون ذهبت جميع جهودهم وأعمالهم الإسلامية أنكاثاً، وراحت في متاهات من الضيعة والفساد.

وتأتي خطورة هذا الجانب أو الجزء من الدواء، بسبب كونه أمراً خفياً ليس للمسلمين من سبيل إلى تحسسه والرقابة عليه، ولولا ذلك لأمكن أن تشيع الرقابة بينهم على هذا الجانب كرقابة بعضهم على بعض في أمر الصوم والصلاة وبقية الأحكام العملية الظاهرة.

ثم تأتي خطورته أيضاً من أن أكثر المسلمين اليوم لا يلتفتون إليه بتنبيه ولا تحذير، ولا يهمهم أمره في بحث أو معالجة، ولا يضعونه في ميزان أي حساب لدى السعي في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي المنشود.

فمن أجل ذلك رأيت أن الجواب يحملني على وصل ما انقطع من الحديث بوصف هذا الدواء العظيم الذي طالما أهمله المسلمون وتركوه ضائعاً في زوايا النسيان، رغم أنهم يرد دون الحديث عنه مرات كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه.

أصف هذا الدواء لنفسي أولاً، فأنا موقن أنني بأشد الحاجة إليه.

وأصفه لجميع الإخوة القراء ثانياً، لأني مدرك ـ كما قلت لك ـ بأنه العلاج الذي لابد منه ولا يصلح أمر المسلمين إلا عليه.

وعلى الله التوكل، ومنه التوفيق، وإليه المآب.

الباطن والظاهر أو الديانة والقضاء

من المتفق عليه أن أوامر الشريعة الإسلامية تنقسم في جملتها إلى ما يتعلق بأقوال وأفعال ظاهرة كالصوم والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي في مصالح المسلمين، وإلى ما يتعلق بالنفس والقلب كالإخلاص والتواضع والحب في الله والبغض فيه والخوف من وعيد الله تعالى والأمل في مثوبته ورضوانه.

وكذلك النواهي فهي تنقسم في جملتها أيضاً إلى ما يتعلق بظاهر الأقوال والأفعال، كالنهي عن القتل بغير حق والسرقة والزنى والغيبة والنميمة، وإلى ما يتعلق بأعماق النفس أو القلب كالنهي عن الكبر والعجب والرياء والحقد والضغائن والتعلق بزخارف الدنيا وأهواء النفوس.

ومن المتفق عليه لدى المسلمين جميعاً أن ما يتلبس به المسلم من الطاعات الظاهرة المتعلقة بالأقوال أو الأفعال، لا يستقيم على حالة من القبول عند الله تعالى ما لم ينهض ويرتكز على تلك الطاعات الأخرى المتعلقة بطوايا النفس والقلب.

فإذا لم يتوفر الإخلاص لله في القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها أي قرب ألى الله جل جلاله، وإذا لم تتهذب النفس بالأخلاق الفاضلة التي أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوباً سابغاً خفياً لها،لم يغنها أي غناء ما قد يلبسه صاحبها على مرأى من الناس من ثوب الصلاح والتعبد والتقوى.

والقلب الذي سيطرت عليه نوازع الكبر أو الضغائن والأحقاد أعجز من أن يمد الطاعات والعبادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى. وإذا انقطعت روافد العبودية مما بين قلب المسلم وظاهر طاعاته، لم تعد فيها أي قدرة على تقريب صاحبها إلى الله جل جلاله، ولم يبق فيها أي وقاية تحجزه عن مطارح الدنيا ومنزلقات الشياطين والأهواء وعاد شأنها كالثمار التي ألصقت إلصاقاً بأشجار يابسة، هل ينتظر بها إلا الذبول والفساد ؟.

وانقسام أحكام الشريعة الإسلامية إلى هذين القسمين، من أهم ما نبه إليه كتاب الله تعالى بمختلف الطرق والأساليب.

فقد قال جل جلاله: " وذروا ظاهر الإثم وباطنه، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ". (الأنعام: ١٢٠).

وقال أيضاً:" قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " إلى قوله:" ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ". (الأنعام: ١٥١).

وإليها التنبيه أيضاً في قوله جل جلاله: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " إذ التنزة عن الشرك في العبادة ملاك الأحكام الباطنة كلها.

وارتكاز أحكام الشريعة كلها على تزكية القلب عن الفواحش الباطنة وتحليه بالفضائل والأخلاق الحميدة، من أوضح ما صرح به كل من كتاب الله تعالى وسنة رسوله.

يقول الله عز وجل: " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ". (والشمس: ١٠)

ومعلوم أن الضمير في الآية عائد إلى النفس.

ويقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق عليه ".. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ".

ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم وابن ماجه وغير هما:" إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم "١[1].

* * *

وإذا ظهرت لك هذه الحقيقة ـ وإنها لحقيقة واضحة ما ينبغي أن تخفى على أي مسلم ـ فأن وسيلة التعبير عنها قد تختلف، والخطب في ذلك يسير.

فقد يعبر عنها بعضهم بالباطن والظاهر، وقد يسميها بعضهم بالديانة والقضاء، وقد يعبر عنها آخرون بالحقيقة والشريعة..

وكلها تسميات صالحة، إذا لو حظ المعنى الصحيح لها.

فإن الذي يصلي وافية الشرائط والأركان يعتبر في الظاهر وفي حكم القضاء وبموجب ظاهر الشريعة مؤدياً حق الله عليه. ولكنه إذا كان متلبساً مع ذلك برياء أو عجب أو عقيدة مكفرة، فإنه لا يعتبر مؤدياً لحق الله تعالى في باطن الأمر وفي حكم الديانة وبالنظر إلى الحقيقة.

إذاً فهما ظاهر وباطن، وديانة وقضاء، وحقيقة وشريعة.

وقد يتفقان في الحكم، وذلك عندما تلتقي الشرائط والأركان الظاهرة التي يضبطها حكم القضاء الدنيوي، بشرائط وواجبات باطنة لا تضبطها إلا رقابة قيوم السماوات والأرض. فذلك هو العمل المقبول عند الله وفي حكم القضاء الدنيوي، أو عندما لا تتوفر شرائط أحد الجانبين، وهو العمل المردود في الظاهر والباطن معاً.

وقد يختلفان في الحكم، وذلك عندما لا يتوفر إلا الشرائط الظاهرة وحدها أو الباطنة وحدها، وهو عمل باطل مردود في حقيقة الأمر، ولا يغني عن صاحبه شيئاً أن تراه منمقاً بالمجملات والمكملات الظاهرة.

وهو ممن ينطبق عليه قوله تعالى:" وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ". (الفرقان: ٢٣).

وتدرك من هذا الذي ذكرناه أن كلا هذين الجانبين ـ مهما اختلفت التسمية ـ متلازما، فلا يصلح ظاهر بلا باطن ولا باطن بلا ظاهر، وكذلك القول فيما قد تسمية حقيقة وشريعة، أو قضاء وديانة.

---

[1]١ ليس معنى هذا الحديث، كما يفهمه بعض الجهال او المتجاهلين، ان من صلحت نيته وصفا قلبه لم يضره ترك الواجبات والعبادات العملية، فان من صلح قلبه وصفت سريرته لا يمكن ان يكون مقصراً في حقوق الله تعالى، وانما معنى الحديث ان التلبس بصور الطاعات والعبادات دون ان يكون لها جذور من صلاح القلب واخلاصه لا يقرب العبد الى الله شيئاً لان الله تعالى كما يرى ظاهر اعمالك يرى ما قد استقر في اعماق نفسك.

وفي بيان ذلك يقول العز بن عبد السلام رحمه الله: " وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب. فمعرفة أحكام الظاهر معرفة لجل الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدق الشريعة، ولا ينكر شيئاً منها إلا كافر أو فاجر "٢[2].

أما القول بأن الباطن أو الحقيقة عبارة عن شريعة أخرى يدركها العقل برياضات معينة أو بإحراز قرب الله تعالى، وأنها تنسخ ظاهر الشرائع والأحكام في حقه، إذ يحل الباطن عنده في الاعتبار محل الظاهر . فهو من أخطر مظاهر الزندقة ولإباحية المجرمة.

وما فاه بهذا الباطل إلا زنادقة تسللوا إلى الإسلام وتظاهروا بالتمسك به، ابتغاء الكيد له والتلبيس على حقائقه، أظهروا التصوف حيناً، ولبسوا لباس التشيع حيناً آخر، وما هم من هذا القبيل ولا ذاك، ولكنهم سلكوا إلى حرب الإسلام وأهله أمكر سبيل.

وقد نقل الشيخ مصطفى العروسي في حاشيته على الرسالة القشيرية عن الإمام الغزالي قوله:" لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالة أسقطت عنه الصلاة وأحلت له شرب الخمر وأكل مال السلطان، كما زعمه بعض جهلة الصوفية، فلا شك في وجوب قتله، بل قتل مثله أفضل من قتل مئة كافر، لأن ضرره أكثر ".

وقد سئل الجنيد رضي الله عنه عن حال هؤلاء فقال: الذي يسرق والذي يزني من العصاة أحسن حالاً منهم٣[3].

ويقول العز بن عبد السلام: " وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شر من قطاع الطرق، لأنهم يقطعون طريق الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلمات قبيحات يطلقونها على الله ويسيئون الأدب على الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء من العلماء الأتقياء وينهون من صحبهم عن السماع من الفقهاء، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم وعن سلوك طريقهم "٤[4].

ولما وقف بعض الناس على هذا التأويل الباطل للظاهر والباطن، أو الحقيقة والشريعة، دون أن يتنبهوا الى المعنى الحقيقي الذي لا ينبغي للمؤمن انكاره وجهله . لم يسعهم الا أن ينكروا الأمر جملة واحدة، فنفوا أن يكون في الدين ظاهر وباطن، أو حقيقة وشريعة، أو ديانة وقضاء،وعظم عليهم هذا القول، واستهجنوا أن يكون في الدين هذا التنويع والتقسيم. اذ لم يقفوا له الا على ذلك التأويل الباطل الذي تمشدقت به الزنادقة والاباحة تحت ستار ما خيلوه الى الناس تصوفاً، أو كرامة أو كمالاً.

٢[2] قواعد الاحكام ٢/١٧٩.

٣[3] شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الانصاري: ٣٧.

٤[4] قواعد الاحكام ٢/١٨٠.

ولا ضير عليهم في انكارهم هذا، ولا عليهم أن يردوا هذه الكلمات التي ليس في حقيقتها الا ألفاظاً اصطلح عليها العلماء للتعبير عن معنى حقيقي لا ريب فيه لمن آمن بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم اصطلح عليها شرذمة ضالة منحرفة للتعبير عن انحرافهم وضلالتهم.

ولكن المهم الذي لا بد لهم أن يدركوه، هو أن الأحكام الشرعية الظاهرة المتمثلة في أقوال على اللسان أو أعمال تتلبس بها الأعضاء . لا تكون مقبولة عند الله، ولا تثبت للانسان أجراً ولا ترفع عنه زوراً، ما لم تقترن بالحالة القلبية التي يجب أن يكون الانسان مستقراً عليها، وأن صلاح النفس والقلب أساس لا بد منه لصلاح الأعمال ظهور ثمراتها.

فاذا استيقنوا هذه الحقيقة التي هي جوهر الاسلام وروحه كان لهم أن يعبروا عنها كما يشاءون وأن يستبعدوا من الألفاظ والتسميات المستعملة للدلالة عليها كل ما لا يريدون.

وصفوة القول، أن الحقيقة الاسلامية التي تعبدنا الله تعالى بها، لا تتكون الا من تناسق البواعث القلبية مع ظاهر السلوك والأعمال، ثم السير معاً على المنهج الالهي الذي اختطه لنا كل من كتاب الله وسنة نبيه. فان تخلف أحدهما فان سير الآخر وحده لا يعبر عن أي حقيقة اسلامية.

ولولا ضرورة هذا التناسق، لما امتاز المؤمنون عن المنافقين بشيء.

ولو لا ضرورة هذا النناسق، لما كان للجهاد والتضحية أي معنى في الاسلام.

ولو لا ضرورة هذا التناسق، لرأيت المسلمين اليوم في أوج من العزة والوحدة والقوة. فقد كان حسبهم سلماً الى ذلك مساجدهم العامرة، ومنابرهم الهادرة، وألسنتهم الداعية، وعلومهم الزاخرة.

ولكن القلوب وحدها هي المتخلفة والبعيدة عن هذا كله فليس من تناسق بين الظاهر والباطن، بين الظاهر الذي نتخادع به، والحقيقة التي يلطع عليها علام الغيوب فلا يخدعه عنها شيء.

الخطر الأكبر.!

وهل تعلم ما هو، أم هل فكرت فيه قط ؟.

انه ليس العدو الداهم الذي يستقر مستعمراً في ديارك، وليس الفرقة التي تشتت القوى وتباعد الصفوف، ولا تلك الأسلحة المذهلة التي تنذر بالدمار الشامل، ولا المجاعة الرهيبة التي تهدد نصف الكرة الأرضية بسبب تناقص نسبة الانتاج أمام تزايد عدد السكان.

انما الخطر الأكبر شيء أشد رهبة من هذا كله !.

انه ذاك الذي يمكن العدو من التسلل الى الديار، وهو ذاك الذي يهيىء الأسلحة للانفجار والوقود للاشتعال، وهو ذاك الذي يوجد أسباب الخصومة والفرقة ويقضي على فرص الوحدة والتعاون.

انه أعدى عدو لنا على الاطلاق. انه نفوسنا التي بين جنبينا !.

أجل.. فالنفس الانسانية التي لم تقترن، مع العمل الصالح، في سير منضبط على المنهج الاسلامي الصحيح، هي الخطر الأكبر في حياة المسلمين اليوم، ما في ذلك شك ولا ريب.

ذلك أن الاسلام في جوهره ليس الا تهذيباً وتربية للنفس، كي تتخلى عما تتسم به عادة من الأنانية والكبرياء والتعلق بزخرف هذه الحياة الدنيا، ثم لتدخل في محراب العبودية لله تعالى طوعاً كما انطبعت بحقيقتها قسراً. فعندئذ يصبح السلوك ثمرة من ثمرات عبودية النفس لله ويكون واقع كل منهما تصديقاً للآخر. اذ تستقر المحبة الأخوية الصادقة في مكان الأنانية البغيضة، وتخضع النفس لقانون العبودية لله بدلاً من الكبرياء الزائفة على الخلق وتستيقن معنى هذه الحياة التي ليست في حقيقتها الا جسراً للحياة الخالدة الأخرى فلا تتعلق من الدنيا بشيء ولا تأخذ من خيرها ونعيمها الا ما يكون عوناً لها على السير في الصراط الاسلام وتحقيق مرضاة الله عز وجل. فيتم من ذلك الانسجام المطلوب بين حقيقة هذه النفس المسلمة والسلوك الاسلامي الذي يشيع في تلاق وتعاون بين المسلمين، ولا تجد بين هؤلاء المسلمين سبباً لتخاصم أو تدابر، ولا يمكن أن يقوم بينهم حقد وتحاسد، أو أن يفرقهم عن بضعهم دنيا يتنافسون فيها أو زعامة يتسابقون عليها. فتتوفر لهم من ذلك القوة التي لا تغلب، والوحدة التي لا تتصدع، ويتداركهم الله تعالى بنصره الصادق المبين، ويعيشون في بلادهم أعزاء كرماء آمنين.

وعندما لا تأخذ النفس من هذه التربية بنصيب . وتلك هي حال نفوسنا اليوم . فان ازدواجاً خطيراً يقوم في كيان المسلم، اذ تنشطر شخصيته ما بين سلوك اسلامي ظاهر يتمثل في أقوال وافعال معينة، ونفس هائجة تائهة مستغرقة في أمانيها الدنيوية وأحلامها الذاتية.

وقصارى ما يكون عليه صاحب هذه النفس من الفضائل والمزايا الاسلامية، أن يلتقط من مظاهر السلوك الاسلامي كل ما يجر له حظاً من المغنم ولا يكلفه شيئاً من المغرم فيكون في ظاهر أمره معها قائماً بحق الله مجاهداً في سبيله، وفي باطن الأمر مقدماً للنفس لوناً آخر من مطامحها الدنيوية وأحلامها الذاتية.

والدين في واقع الأمر عند أصحاب هذه النفوس ليس الا ترساً يتقي به أحدهم ما قد يتلقاه من الانكار على خبيثة أمره، أو هو ليس الا لثاماً يستر به عن الناس حقيقة ما في نفسه.

وهيهات أن ينهض المجتمع الاسلامي المنشود على مجن أو لثام من التدين، دون أن تجد من ورائه تحملاً لما قد يرهق النفس أو يخالف شيئاً من أهوائها وتطلعاتها الذاتية.

وما أيسر على صاحب هذه النفس أن يصطنع المعاذير ويفتح لها سبل التهرب الشرعي، ويروج من حوله هالة من الضباب التي قد تستر عن الناس خبيثة أمره.

الا أن الدين نفسه لا ينخدع بشيء من ذلك.

لقد جاء من يعتذر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يخشى على نفسه الفتنة في الدين لو خرج معه الى جهاد الروم ورأى من حوله نساء بني الأصفر.. فأنزل الله فيه قوله: " ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين " (التوبة: ٤٩)

وجاء اليه صلى الله عليه وآله وسلم من يتنطع قائلاً: ان بيوتنا في المدينة مكشوفة للعدو وليس فيها الا الصيبة والنساء.. ! حتى ينفلتوا بذلك من الجهاد في حفر الخندق. فانزل الله فيهم قوله: ".. ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة، وما هي بعورة ان يريدون الا فراراً " (الأحزاب: ١٣)

فكيف يتحقق نصر الله للمسلمين اذا كانت ألسنتهم وأقوالهم في واد من الدعاوي، ونفوسهم تائهة في واد آخر من التنافس على الدنيا والتسابق الى أهوائها ؟!.

ان شيئاً من مقومات النصر الاسلامي لا يمكن أن يثمر في حياة هؤلاء الناس !.

فهم لا يتفقون فيما بينهم. لأن ألسنتهم تلهج بأمر، ونفوسهم زائغة في الوقت ذاته نحو أمور أخرى، فلا يوحدهم هدف حقيقي ولا تجمعهم غاية ذاتية معينة.

وهم لا يثقون بعضهم ببعض، لأن معرفة كل منهم لواقع نفسه تعتبر دليل اتهام لواقع ما عليه الآخرون !.

وهم لا يتحابون ولا بتوادون عن صدق، اذ كان تعلق نفوسهم بالدنيا ومغانمها مثار حسد يشيع فيما بينهم، فلا يكون لأحدهم من شأن أو مكانة أو مال الا وكان في نفوس الآخرين منه حسد يفري نفوسهم أو ضغائن تلهب قلوبهم، وربما بات أحدهم يتقلب في هم هذه المشاعر أكثر مما يتقلب في هم المسلمين أو في هم المصير الذي ينتظره بين يدي الله عز وجل.

وهم لا يتعاونون، من أجل ذلك كله، الا بمقدار، وهو المقدار الذي يوفر لكل منهم مصالحه، ويهيىء له السمعة الفاضلة، والمكانة اللائقة، فهم انما يتعاونون في الحقيقة ابتغاء هذه المغانم التي لا تتوفر الا من هذا الطريق. فاذا ما امتد بهم السبيل الى ما وراء ذلك رأيتهم تفرقوا في مسالك متباعدة متنافرة، ورأيت لكل منهم معذرة يعتذر بها، وتنشد حينئذ الاتفاق والتعاون والاخاء فلا تقع لشيء من ذلك كله على أثر !.

وهم بناء على ذلك كله لا ينصرون، لأن من بيده المعونة والنصر ناظر اليهم عالم بحقيقتهم، لا يخفى عليه منهم شيء، فمهما رأيت جموعاً محتشدة أو سمعت كلمات مخيفة ثائرة أو اطلعت على تخطيط رائع دقيق، فان شيئاً منه لا يخيف عدواً، ولا يؤلف رابطة، ولا يقيم جامعة، لأنه غثاء.. والغثاء لا يخيف أحداً.

وصلى الله على من حذر المسلمين من هذا الخطر الأكبر يوم قال:

" يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة الى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟. قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله الرهبة منكم من قلوب أعدائكم، وسيقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن ؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت "٥[5].

منبع هذا الخطر:

وانما ينبع هذا الخطر الكبير من مصدر واحد، هو تعلق القلب بالدنيا ووضعها في أعلى من المرتبة الحقيقية التي وضعها الله عز وجل فيها. الدنيا ليست، كما يتوهم البعض محصورة في الدرهم والدينار والأرض والعقارات. وانما هي تتمثل في سائر الشهوات التي تميل اليها النفس، كالمكانة، والجاه، والزعامة، والكبر، والركون الى مختلف مظاهر النعيم. فكل ذلك من الدنيا التي ابتلى الله الانسان بها ليجاهد نفسه في التعالى عليها والتحرر من أسرها، وليسوقها بعد ذلك مطية في طريق مرضاة الله تعالى.

فعندما يتعلق القلب بأهواء الدنيا، ولا يقوى على التحرر من أسرها،ولا يجاهد الرجل نفسه في محاولة ذلك . يتفرع عن ذلك شتى الأمراض القلبية التي تعتبر من أعظم الآفات الخطيرة في حياة المسلمين. فيبتلى القلب بالكبر والحسد والرياء والعجب وشتى الضغائن والأحقاد، ويتغلب الشح على النفس ويشيع فيها الزهد في الآخرة ومثوبتها، ويقل الخوف من عقاب الله وعظيم عذابه، ويتحول الجهاد عندئذ الى تنافس على الدنيا، بعد أن كان سعياً للتحرر من رقب والاستعلاء على مغرياتها.

وتأمل حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يقول فيما يرويه الشيخان: (.. فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم).

وكيف يكون سبيل الهلاك ؟.. انها كما قلت لك: يبتلى القلب من وراء التعلق بالدنيا بتلك الأدواء والأمراض الخطيرة، فتتصدع وحدة المسلمين، ثم تزول الثقة مما بينهم ويتعادى فئاتهم وأفرادهم، وتزول أسباب التعاون مما بينهم، ويأكل بعضهم بعضاً بنيران العدوان والبغضاء، ويجني العدو ثمرة ذلك لنفسه قهراً وبطشاً وانتصاراً.

فلو مات هؤلاء المسلمون اختناقاً أو دماراً في بيوتهم لكان ذلك أشرف لهم من هذا الهلاك الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أثبته الواقع كما وصف.

من نتائج هذا الخطر

٥[5] رواه ابو داود وسنده صحيح.

ومن أعظم نتائج هذا الخطر الأكبر، ما قد أوضحت لك، من تهدم أركان المجتمع الاسلامي واضمحلال شأن المسلمين وتفرق أمرهم وتحول العمل الاسلامي فيما بينهم الى شعارات وأعمال سطحية لا ثمرة لها ولا فائدة منها !..

ومن نتائجه أيضاً أن العمل الاسلامي ينقلب في واقع حال الكثيرين منهم الى مجرد تخطيطات شكلية وأمور حركية تستأثر من حياتهم بالسطح الأعلى وحده، ولا تغوص الى شيء مما وراء ذلك !. اذ كان سلطان الاسلام قد تناقص عن القلب، ثم ظل يتناقص حتى لم يعد له فيه سلطان، وعاد الحكم فيه للدنيا وأهوائها ومصالح النفس ومطامحها. وأصحاب هذه القلوب بين الناس مسلمون، وهم يتمنون لو أن الاسلام عاد الى السيطرة والحكم، فيرفعوا رؤوسهم به عالياً ويكون لهم به غلبة وسلطان . وهي أمنية دنيوية لا تتنافى مع استحكم في قلوبهم وتعلقت به نفوسهم . فيذهبون في نصرته والعمل له مذهب أولئك الذين ينتصرون لمذاهبهم الأخرى:عمل حركي بحت يقوم على النظريات والأفكار والتنظيمات السطحية المجردة.

وقد فاتهم أن بين طبيعة الاسلام وطبيعة المذاهب الفكرية الأخرى فرقاً كبيراً.

فالاسلام قائم في ذاته على تحقق معنى العبودية لله في النفس، وهو المنطلق الأول لكل عمل وحركة وسعي في سبيله، وهو يكلف المسلم اصلاح قلبه ونفسه قبل كل شيء أما المذاهب الفكرية الأخرى فلا تكلف نفوس أصحابها شيئاً من ذلك ولا تحملهم على أي اجتناب لما أطلق القرآن عليه اسم: " باطن الاثم "، ولذلك فان دعوتهم اليها تبدأ من عمل حركي وتنتهي الى عمل حركي، والنفس سائرة معه بطبيعة الحال لأنه لا يكلفها ترك شيء من أهوائها ومشتهياتها.

الا أن اعراض أكثر المسلمين عن هذا الفارق الأساسي الخطير، واهمالهم (نتيجة لذلك) لاصلاح القلب والنفس، جعلهم يقلدون الآخرين في أساليبهم ويحصرون أنفسهم في مثل دائرتهم: نقاش، ومجادلات، ولقاءات، وتفتن في الأفكار، واختراع للمناهج، ولا شيء من وراء ذلك.

وربما هون الكثير منهم من أمر العبادات والأذكار وحضور الجماعات وأنواع القربات التي يتوخى من ورائها احياء القلب وايقاظه للحقيقة الاسلامية، وتخليصه من أمراضه التي نحن بصدد الحديث عنها، واعتبروا ذلك من دأب العامة وعاداتهم، وتصوروه شيئاً لا يليق بمن نشط للحركة والدعوة الاسلامية !.

انه وهم عجيب مؤسف.. ! سببه ما قلت لك: الذهول عن الفارق الأساسي الكبير بين الاسلام والمذاهب الفكرية الأخرى، وبسبب الذهول انصرافهم عن مجاهدة النفس وتركها مع ما تهواه وتطمح اليه.

وليس معنى هذا الذي أقول، أن العمل الاسلامي ما ينبغي أن يعتمد على تخطيط أو نشاط حركي.. وانما المقصود أن كل سعي في سبيل الاسلام يتوقف نجاحه على أساس جوهري لا بد منه، ألا وهو اصلاح القلب وتقويمه وانتزاع أهواء الدنيا منه.

ومن نتائجه أيضاً تلك النظرة الخاطئة العجيبة الى من يأخذ نفسه بمراقبة قلبه، ويسعى بالطرق المختلفة المشروعة الى اصلاح نفسه.

كثير من الناس يرى أن مثل هؤلاء يشغلون أنفسهم بما لا حصيلة له ولا ثمرة منه، وربما قالوا انه بدعة وضلالة لم يأت بها الدين. !!

والحقيقة التي لا ريب فيها ان هؤلاء هم الذين عرفوا حق الله عليهم فالتزموه ولم يحديوا عنه، وما أخذوا أنفسهم به هو الذي بعث به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فهو جوهر الاسلام ولبه. ولا خير في اسلام امرىء لم يهذب الاسلام نفسه ولم يسيطر على قلبه بالاصلاح واخراج خط الدنيا منه.

نعم، انما ينكر حال من قد حصر نفسه في هذه الرياضات وحدا، حتى لم يعد يحس بضرورة أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ولا اصلاح لفساد. فهذا معطل لجانب كبير من واجبات الله عليه بحجة الانشغال باصلاح نفسه وتهذيب حاله.

وانما عليه أن يكون مسلماً كامل الاسلام، قائما بحقوق الله كلها، بدءاً من مجاهدة نفسه الى ما وراء ذلك من اصلاح أهله وذوي قرباه الى ما وراء ذلك أيضاً من التعاون مع اخوانه من أجل اقامة المجتمع الاسلامي السليم.

ومن نتائج هذا الخطر الأكبر أيضاً ما قد يترعرع في النفس من العصبية الباطلة الى الجهة التي ينتمي اليها صاحب هذه النفس، سواء أكانت الجهة تتمثل في أسرة أو قبيلة أو شيخ أو جماعة، حيث تحمله هذه العصبية على أن يجعل ولاءه وأخوته قاصرين على جهته التي ينتمي اليها. وتظل النفس تتغذى بهذا الشعور وتركن الى هذا الاحساس، حتى ينمحي من ذهن صاحبها واقع معنى قوله تعالى: (انما المؤمنون اخوة) بواقع الأخوة الضيقة الأخرى التي قام مفهومها في كيانه. ثم تتوالد من ذلك الآثار الضرة المختلفة دون أن يشعر بها أو ينتبه الى خطورتها.

ومن أبرز هذه الآثار ما قد تجده عند هؤلاء من تحول التقدير للفكرة والمبدأ الى تقديس للشخص واليكان !..

فيدو واقع الشخص الذي يقدسه هو مقياس الحق الذي يؤمن به، بدلاً مما ينبغي أن يكون عليه الأمر من اتخاذ الحق وحدها مقياساً لتقويم الأشخاص وتقديرهم.

وبالمقابل، فان أحدهم لا يرى في غير الجهة التي يرتبط بها، ما هو جدير بالتأمل والنظر، اذ كان الحق ـ في وهمه ـ لا ينبع صافياً معصوماً الا منها. فان كان عند الآخرين ما يخالفها فانما هو في نظرهم دليل على بطلاته، وان كان متفقاً معها فانما هو مأخوذ منها ومتفرع عنها. !! وما أكثر ما يضل أناس من هذا الطريق، وما أكثر ما يبدلون أحكام الله ويغيرون شريعته من أجل هذا السبب.

ويرحم الله الداعية الاسلامي العظيم (بديع الزمان) سعيد النورسي، فقد أحس ذات مرة أن من بين طلابه من يذهب في تقديسه مذهباً يعظم فيه الحق من أجل اتصاف النورسي به، ويؤمن بالمثل العليا من أجل ما يرى من تجسدها في شخصه فكتب رسالة مستفيضة الى تلاميذه قال لهم فيها:

" اياكم أن تربطوا الحق الذي أدعوكم اليه، بشخصي المذنب الفاني. ولكن عليكم أن تبادروا فتربطوه بينبوعه الأقدس: كتاب الله وسنة نبيه. ولتعلموا أنني لست أكثر من دلال على بضاعة الرحمن جل جلاله. ولتعلموا أ،ني انسان غير معصوم، قد يفرط مني ذنب أو يبدر مني انحراف، فيتشوه مظهر الحق الذي ربطتموه بي بذلك الذنب أو الانحراف. فاما أن أكون بذلك قدوة الناس في الانحراف وارتكاب الآثام، أو صارفاً لهم عن الحق بما شوهه واختلط به من انحرافي وآثامي ".

ومرد هذه العصبية الخطيرة، الى طبيعة الأنانية في الانسان، وهي من أخطر الأمراض القلبية التي يجب على المسلم معالجتها والجهاد الدائب للتحرر منها.

الا أن الأنانية قد تتمثل في " النزعة الفردية " عند بعض الناس، وهم الذين تهيأت لهم ظروف تقديس شخصياتهم أكثر من ظروف الانخراط مع أقوام أو فئات وجماعات.

وقد تتمثل في " النزعة الجماعية " عند آخرين، وهم الذين شغلوا عن فرديتهم بالانضمام الى قوم أو هيئة أو جماعة.

بل ربما تمثلت في مظهر من مظاهر الدعوة الى لاحق كمن يغضب لمنكر ارتكب أمامه وأريد منه الاستهانة بشخصيته الدينية.. ! انك لتجد أحدهم يستشيط غضباً ـ في الظاهر ـ لما انهدر من حرمة الدين وكرامته، ول كشفت عن خبيئة نفسه لرأيته انما استشاط غضباً لما أصابه بذلك من خدش لحمرة شخصه وكرامة ذاته. وآية ذلك أنه لو لم يكن في مظهر ديني معروف ولم يحس به أحد من أرباب ذلك المنكر، لمر غير ملتفت اليه ولا عابىء به.

أو كمن ينتمي الى شيخ أو جماعة، فلا يزال يتعصب له أو لها ـ وهو انما يشبع بذلك نزعته الأنانية ـ حتى يصل به التعصب الى حال يرى فيه أن المسلمين الصادقين ليسوا الا من كانوا ضمن دائرة التبعية لشيخه أو جماعته، وأن الآخرين ليسوا الا مسلمين من الدرجة الثانية. وأن من لم يكن منهم فهو عليهم. ! وربما تمثلت هذه (الأنانية الجماعية) في تعليمات وشعارات يغذى بها الأفراد المنتسبون على أنها جزء من التعاليم الاسلامية ذاتها.

ثم ان علاج هذه العصبية التي تنبعث من الأنانية التي وصفتها، ليس في أن يتجرد المسلم عن صحبة شيخه الذي يتعلم منه، أو مرشده الذي يستفيد من رعايته، أو جماعته التي يتعاون معها.. لا، ليس هذا هو العلاج.

وانما العلاج أن يدرك المسلم أن كلا من شيخه الذي يتعلم منه، أو مرشده الذي يسلك على يديه، أو جماعته التي يتعاون معها ـ انما هو واسطة لا غاية ـ والواسطة لاتحرز من الأهمية الا بمقدار انسجامها واتفاقها مع الغاية التي هي الأصل.

فاذا أدرك المسلم هذا، علم أن ولاءه انما ينبغي أن يكون للغاية التي هي الاسلام بحد ذاته،وانما ارتباطه بوسيلة الشيخ أو الجماعة شيء ما ينبغي أن يكون الا بالقدر الذي يحقق له ذلك الولاء على خير وجه، ويمكنه من أن يكون مسلماً لدين الله متمسكاً بأحكامه.

فاذا نمى المسلم ولاءه لهذه الحقيقة بمزيد من التعلق والحب، ذابت طبيعة الأنانية في ضرام هذا التعلق، ولم تجد ما تتجسد فيه من نزعة فردية أو جماعية، بل تنقلب بطبيعة الحال الى تفان في سبيل الحقيقة الاسلامية من حيث هي. فلا يكون ارتباطه بالآخرين ـ أيا كانوا ـ الا مستظلاً بظل هذا الولاء وخاضعاً لرعايته ورقابته.

فلا يشغله حبه لشيخه عن حكم الله عز وجل في حقه، ولا تقصيه تبعيته لجماعته واخوانه عن الولاء لبقية المسلمين الصادقين، اذ كانت رابطته بشيخه أو جماعته متفرعة عن ارتباطه الذاتي الأوثق بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما يقضيان به من المبادىء والأحكام٦ [6].

وخلاصة القول، ان جميع ما يعانيه المسلمون اليوم من الآفات والمصائب المختلفة، انما هو نابع من هذا الخطر الأكبر.

فلولاه، لتوفر في أفئدهم بهم الصدق والاخلاص، ولو توفر لديهم لذلك لشاعت الثقة فيما بينهم، ولتم فيهم ذلك لتعاونوا متحدين متضمنين في أسرع محاولة ومن أيسر سبيل.

ولو تحقق ليهم هذا لتفجرت أسباب القوة في حياتهم ولشاعت الرهبة منهم في صدور أعدائهم، فعادت اليهم كرامتهم المسلوبة واسترجعوا مكانتهم الخطيرة العظمى فوق هذه الأرض.

---

[6]٦ لا ينبغي ان يفهم هذا الكلام الذي لا بد منه، على انه توهين لحركة الدعوة الاسلامية او انه دعوة الى ايجاد جماعة اخرى من المسلمين ينفردون ن بقية فئاتهم وجماعاتهم في سلوك منفرد وسبيل مستقل.

بل الذي لا نشك فيه ان كثرة الفئات والجماعات المتشعبة المتخالفة في الرأي والسلوك تزيد في مصائب المسلمينواسباب تفرقهم وتدابرهم.

وانما نقول: ان حركة الدعوة الاسلامية الصادقة لا يكلؤها عن الوقوع في الضعف والشتات والتمزق والانقسام، الا دوام التنبيه والتحذير من الوقوع في مثل هذه المنزلقات والاخطاء.

وبقدر ما يفتح دعاة الاسلام قلوبهم لنقد سليم او توجيه سديد، يزداد عملهم نضجاً وقواهم تماسكاً، وبقدر ما يستعلون عن قبول النصح الصحيح والنقد السليم تزداد عوامل التصدع فيما بينهم وتتجمع اسباب الشقاق في صفوفهم.

ولكن أفئدتهم لما انصرفت متعلقة بمختلف مظاهر الدنيا ومغرياتها، من مال، أو جاه، أو منصب، أو شهوات على اختلافها، شاع فيما بينهم التنافس عليها والأثرة من أجلها. فاستحكمت في أفئدتهم الضغائن والأحقاد وراحوا يراقب بعضهم بعضا بعين الحسد أو الازدراء وانمحت الثقة بذلك مما بينهم، وقامت الظنة مكانها في نفوسهم !.

واكتشف عدوهم فيها هذه الأدواء والمصائب الأليمة، فوضع هم فيها،وركز سعيه عليها، واتخذ الاهلاكم بها أقرب سبيل.

أما ما نراه مسدلاً فوق ذلك من مظاهر الاهتمام بلاسلام، والدعوة الاسلام ورسم الخطط والأفكار من أجله . فلم يعد شيء من ذلك يحرك ساكناً أو يخدع جاهلاً، أو يصلاح فاسداً.

ولكنه، ويا للأسف، قد يخدع فتية أغراراً، شبت نوازع الاسلام قوية حارة بين جوانحهم الغضة، وأفكارهم اليائعة. فهم لا يكادون يبصرون شيئاً من مظاهر الاهتمام بالاسلام أو يسمعون كلمات منمقة عنه الاوقد انقذفوا، في حماسة وصدق، للسعي والعمل والجهاد بالقدر الذي تطوله سواعدهم وتجود به امكاناتهم.

ولئن كانت لرحمة الله الينا من سبيل، فانما هي بفضل هؤلاء.

ولئن كان بيننا وبين سخط الله وعاجل عقابه من حاجز، فانما هو باخلاص هؤلاء.!

شبان، يحرقون شبابهم الرائع سعياً على صراط لله الذي حفت بجوانبه شتى المغريات والأهواء وقد صدقوا وعده وآمنوا بوعيده، وتعلقت منهم الآمال بمرضاته. !

فياملهم الخير ومقلب القلوب، طهر قلوبنا هذه عن كل وصف يباعدنا من مشاهدتك ومحبتك والتمسك بدينك، وأجمعها على السعي مرضاتك، وارفع عبادك الذين وضعتهم في طريق دعوتك، الى مستوى هذا الشرف العظيم اخلاصاً وصدقاً وتفانياً، واجعلهم عند حسن ظن هؤلاء الفتية الأطهار انك سميع الدعاء.

وهذا هو العلاج

وقبل ان أحدثك عنه، ينبغي أن أسألك أولاً:

هل علمت المشكلة، وأيقنت بحقيقة الداء وتشخيصه ؟.

ذلك، لأن ادراك المشكلة يساوي نصف الطريق الى حلها، والتأكد من حقيقة الداء يعتبر نصف العالجة له.

فان لم تكن قد آمنت بهذا الذي ذكرته لك، وكنت في شك من أن مرد بلائنا . على اختلاف مظاهره . الى هذا الخطر الأكبر الذي شرحته لك بايجاز، فان وصف العلاج لا يجدي، لأن دوافع استعماله مفقودة.

أما ان استقر كلامي في نفسك، وأيقنت أن هذا هو سر كل ما نشكوه من أحوالنا، فانك ستلتفت الى ما أقوله باهتمام، وتحاول ما دمت صادقاً مع الله عز وجل في اسلامك . أن تستعمل هذا العلاج جهد استطاعتك وأن تدعو الناس اليه وتذكرهم به.

ولسوف يكون من اليسير عليك أن توقن بأنه العلاج الذي لا بديل عنه، وأن تجزم بأن جميع المسلمين . على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم . بحاجة دائمة الى استعماله والاستفادة منه.

وأنا، انما أصفه لنفسي أولاً، ثم أذكر به من شاء من المسلمين ثانياً. وأسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر عليه.

*** * ***

طالب، يجلس في قاعة امتحان، منهمكاً في كتابة الأجوبة المطلوبة. أستسقى المراقب كأساً من الماء، فلما جيء اليه بها، شرب الماء.. ثم ثبتت عيناه على الكأس وانصرف تفكيره اليها، وراح يتأمل صفاءه ورقتها والمعمل الذي أنتجها !.

ونسي الطالب الامتحان، والأسئلة، والزمن الذي ينطلق من حسابه سريعاً، وراح مستغرقاً في النظر الى الكأس !.

ترى ما هو العلاج الذي ينبه الطالب من هذا الغفلة، ويعيده الى التفكير فيما هو بسبيله ؟..

انه شيء بسيط جداً.

العلاج، أن يأتي من يذكره بأنه في قاعة امتحان وأن الوقت يوشك أن ينتهي، والمراقب يوشك أن يأخذ الأوراق من بين يديه.

ان المسألة واحدة، ولا فرق بين الصورتين.

الا أن قاعة الامتحان هنا أعظم ضخامة وأكبر اتساعاً، والمادة الامتحانية أخطر بكثير !.. أما العلاج فواحد. وهو أن يأتي من يذكر هذا الانسان بنفسه بذاته وينبه الى الساعات بل اللحظات الخطيرة التي يمر فيها،والى المصير الرهيب الذي ينتظره. وخير من يذكر هذا الانسان بذلك، وازع من داخل كيانه.

العلاج، أن نتذكر، يا أخي المسلم، هويتنا في هذه الحياة، ثم الوظيفة التي خلقنا للقيام بها، ثم أن نستمر في تذكرها كلما سهونا أو غفلنا عنها.

وما هي هويتنا الحقيقية !.. اننا عبيد مملوكون لله عز وجل، بيده جميع تقلباتنا واليه وحده مصيرنا، وله وحده حياتنا ومعادنا..

هوية دمغ علينا قول الله عز وجل: (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين).

ويستوي في الانصباغ بحقيقة هذه الهوية كل مؤمن وكافر.

أما وظيفتنا التي خلقنا من أجلها، فهي أن نضع هذه العبودية موضع التنفيذ، فنقيم عليها سلوكنا وجميع مظاهر حياتنا. وانما يكون ذلك بأن نسمو على كثير من خصائص النفس وأهوائها، ونخضعها لما أمر به الله عز وجل، ثم أن تعنوا له وحده بالحاجة والذل، فلا يعلق القلب بأحد غيره ولا نطلب خيراً الا منه، ولا نستعيذ من شر الا به وهذا السلوك هو فرق ما بين المؤمن والكافر.

فاذا عرفنا ذلك، أدركنا الغاية العظمى التي يجب أن نتجه اليها في حياتنا الدنيا، وأدركنا مدى أهمية هذه الغاية. وعندئذ تعلم أن جميع ما دونها من مظاهر الدنيا ينقسم الى نوعين: وسائط للوصول الى هذه الغاية، ومعوقات تقطعنا دونها. وماذا تفعل اذا كنت تجتاز مفازة الى غاية لك ؟..

انك تعمد الى الوسائل الموصلة أو المقربة فتستخدمها، وتنظر الى العقبات فتنحرف عنها أو تجتاز من فوقها.

وهذا بعينه ما يدعونا الأمر الى سلوكه في الحياة، تجاه الغاية العظمى التي خلقنا لها:

أما الوسائط الموصلة الى الغاية فتستخدمها لها. وذلك هو شكر الله عليها، وأما العقبات المقطعة فتحيد عنها أو تجتاز من فوقها. وذلك هو الصبر الذي أمرنا به الله عز وجل.

ولا يجهل هذه الحقيقة الا أحد رجلين: جاحد بالله عز وجل، فهو لا يؤمن بعيودية ولا وظيفة ولا غاية، وهذا لا حديث لنا معه في هذا المقام. أو ذاهل عنها بسبب ما استغرق فيه من المغريات والملهيات والمنسيات، وهذا انما يعالج أمره بالتنبيه والتذكير.

وقد علم الله عز وجل أثر ملهيات الدنيا ومنسياتها، في ابعاد المؤمن عن التنبه الى حقيقة ذاته ووظيفته. فوضع أمام عينيه هويته الكاملة في شعار من كلمتين: " ايك نعبد، واياك نستعين " وأمره أن يكررهما بين يديه عز وجل في كل ركعة من صلاة. حتى يكون له من ذلك ـ ان كان مسلماً حقاً ـ ما يقاوم ملهيات الدنيا ومنيساتها، فيتذكر دائماً أنه لي الا عبداً ذليلاً لمالك قاهر عظيم، فوظيفته أن يدين بالعبودية الكاملة له، وأن يستيقن أنه لا نفع ولا ضرر الا منه فهو وحده المستعان في كل شيء.

فاذا تذكر المؤمن هذه الحقيقة، ثم ظل على تنبه لها. أو كان سرعان ما ينتبه لها كلما أخذ عنها بشي " من مشاغل الدنيا وأهوائها، تجرد قلبه عن التعلق بكل ما سواه:

فلم يتعلق بمال ولا جه ولا ثناء ولا عجب ولا كبر، ولم يعد ينصرف قلبه الى حقد أو ضيغنة أو حسد، ولا الى أمل يوثقه بأحد من المخلوقين.

اذ هو قد أشرب معنى العبودية لمالك الملك كله، فهو لا ينصرف بحاجاته الا ليه، ولا يطرق سائلاً سوى بابه..

فان أعطي شكر وسخر العطاء لتحقيق المزيد من مرضاته.

وان منع صبر وأيقن أن ذلك هو الخير له في دنياه وآخرته.

وهذا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: " اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك "٧[7].

وهذا يوضح لك انه لا يشترط لعدم تعلق القلب بشيء من الدنيا أن يقتلع الانسان من قلبه طبيعة الاحتياج اليها والى مشتهياتها، فهذا امر مناف للفطرة التي فطر الله عباده عليها. وانما المعنى أن ينصرف بحاجاته كلها الى لله عز وجل فيطلب منه فقط ما يزيد ويحب، ويشكو اليه فقط ما يألم منه ويعاني، تحقيقاً لقوله عز وجل: " فابتغوا عند الله الرزق "٨[8]، وقوله: " وأسألوا الله من فضله "٩[9]، وقوله: " ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين "١٠[10].

بل ان العبد ـ اذا تعلق قلبه بالله عز وجل ـ يزداد عبودية له، كلما ازاداد شعوراً بحاجاته وتطلعاته المختلفة. ذلك لأن مادة العبودية في الانسان انما هي الحاجة والضعف (وخلق الانسان ضعيفاً) فلو لم يكن محتاجاً الى هذا الذي فطر على التعلق به ولو لم يكن ضعيفاً عن نيل كل مبتغياته، لما كان ثمة معنى لالتزامه موقف العبودية لله عز وجل.

ولذلك، لم يكن أي تناف بين الرضا بقضاء الله تعالى والشكوى اليه. بل هما عنصران لا تم حقيقة العبودية لله عز وجل بدونهما.

وقد اجتمعا في دعائه عليه الصلاة والسلام عند رجوعه من الطائف، اذ قال: " اللهم اليك أشكو ضعف قوتي قلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني أم الى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ـ ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك ".

واذاً، فان العلاج هو أن نظل على ذكر لهويتنا الحقيقية، ومعرفة لوظيفتنا التي كلفنا الله تعالى بها، وأن نجعل منها غاية نضعها نصب أعيننا ونتخذ من الدنيا بما فيها وسائط لتحقيقها.

٧[7]رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

٨[8] العنكبوت: ١٧.

٩[9] النساء: ٣٢.

١٠[10] الذاريات: ٥٠.

وتلك هي حقيقة العبودية لله تعالى، وتلك هي أرفع منزلة يتبوؤها الصديقون، ويتطلع اليها المخلصون. أما عوام الناس فتلتبس عليهم هذه الحقيقة بمظاهر العبادة فيقفون عند التمسك بهذه الثانية، ولا يلتفتون الى شيء من خطورة الأولى وأهميتها١١[11].

ولذلك كان القائمون بأمر العبادات الظاهرة هم الكثرة الغالبة من المسلمين، وكان المتحققون بالعبودية الباطنة هم القلة النادرة فيهم.

* * *

استعمال هذا العلاج

ذلك هو العلاج، ولكن كيف السبيل الى استعماله ؟.

كيف السبيل الى أن تصطبغ بحقيقة العبودية لله وحده، فلا يستعبدك مال ولا جاه ولا غرض شخصي ولا شيء من آفات النفس من أنانية وكبر وعجب وأثرة وغير ذلك ؟

لا ريب أن السبيل الى ذلك ليست سبيلاً ميسورة " وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم " وقوله: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ". وهو الفارق الذي يفصل المؤمن الصادق في ايمانه عن المنافق الذي تجمل بمظهر التدين والايمان. وهو الحاجز الذي يمنع المسلم من الدخول تحت قوله عليه الصلاة والسلام:

" تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، واذا شيك فلا انتقش، ان أعطي رضي، وان لم يعط سخط "١٢[12].

وهو الحارس الذي يحمي ايمان المرء من الذئبين الجائعين اللذين حذر منهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف، لدينه "١٣[13].

ومن أجل أهمية هذا الجهاد، وكونه الطريق الوحيد الموصل الى مرضاة الله تعالى والمؤدي الى ساحة العبودية الصادقة له . بذل سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم كل طاقاتهم في هذا الطريق، وسلكوا الى

---

[11]١١ يجدر بالقارئ الكريم ان يرجع للتوسع في هذا البحث الهام الى كتاب "العبودية" للشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى.

[12]١٢ رواه البخاري وابن ماجه.

[13]١٣ رواه احمد والترمذي وابو داود.

جهاد النفس ورد غوائلها مسالك مختلفة كثيرة، حتى أدى هذا الاهتمام ببعض منهم الى مبالغات وتكلفات أخرجتهم عن حدود الشريعة وهدي النبوة.

ونحن نستعرض من ذلك كله ما أجمع عليه السلف وتمت عليه دلال الكتاب والسنة، ونذكر أنفسها بأنه جوهر الاسلام ولبه، وأنه السلم الوحيد الى التحقق بالمنهج الالهي الذي ألزم الله تعالى به عباده، وأنه المفتاح الذي لا بد منه لتيسير كل صعب، وجمع كل شمل، وتحقيق كل نصر.

وأذكر نفسي بذلك كله أولاً، ثم أوصي به أخواني ثانياً، سائلاً الله تعالى أن يمدنا بعون منه وتوفيق. وهذه هي الوسائل:

* * *

أولاً . تفكر الانسان في ذاته ومصيره، ورقابة الله عز وجل عليه، وايقاظ العقل الى ذلك عند كل غفلة ونسيان.

والفكر حركة العقل، فمن دونه لا يغني العقل شيئاً. والفكر هو الذي يحرر العقل من سلطان النفس وأهوائها وعقدها. فمن دونه لا يستبين الانسان الفارق بين دلائله العقلية وابحاءاته النفسية.

ولذلك يختم الله تعالى كثيراً من آياته الكونية وأوامره الالهية بقوله: لعلكم تتفكرون.. ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون.. أفلا تتفكرون ؟.

ولذلك أيضاً كانت الركيزة العظمى في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مؤمناً،وداعياً، ومجاهداً، انما هي الفكر الدائم. وما كان عبثاً أن يلهمه الله تعالى الابتعاد عن ضوضاء الناس وحياتهم ومفاسدهم ليخلو الى عقله مفكراً ومتدبراً ومتأملاً، في غار حراء، مدة طويلة من زمن.

وكلما كان التفكر في نجوة عن الناس وضوضائهم وملهيات الدنيا وأهوائها، فان نتيجته تكون أصدق وأدق. اذ النفس الانسانية تستقبل ما يردها من الدوافع والايحاءات عن طريق نوافذ كثيرة كلها مفتحة عليها، فمنها العقل والمنطق الصافي، ومنها الأهواء والشهوات المركوزة في كيان الانسان، ومنها ردود من مشاعر النقص أو دوافع الكبر أو السلطان العصبية، ومنها عقد أوجدتها الضغائن والأحقاد والمنافسة على حطام الدنيا وزخرفها الكاذب.

وليس الشأن أن يحسن الانسان الاصغاء الى هذه الأصوات كلها، انما الشأن كل الشأن في أن يحسن الانسان الاصغاء الى صوت العقل وحده متميزاً من بين هذه الأصوات كلها !.

وانما يتم ذلك بساعات منظمة من الخلوة أو العزلة، يجعل الانسان لعمره نصيباً منها، يتجرد فيها لعقله المستقل الحر يسأله عن مصيره وعن حقيقة كل هذا الذي يضج ويتراقص من حوله، مستعيناً بذكرى كلام الله تعالى وبالغ عظاته وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعظيم ارشاده.

ولست أدعوك، بهذا الذي أقول، الى الانعزال عن المجتمع، والعيش بعيداً عنه في كهوف جبال أو بطون أودية. فليست هذه فطرة الانسان ولا هي وظيفة المسلم.

ولكني أدعوك الى أن تخلو الى عقلك كلما رجعت الى حساب صندوقك. أي فأنا أدعوك المثل ما يعفله التاجر الذي يعيش عمره بين صخب الناس وضجيج الأسواق. ان ذلك لا يمنعه عن أن يخلو الى نفسه في غرفة من غرف داره، بين كل حين وآخر، متجرداً حتى عن الأهل والولد والمؤنس، ويعكف مستغرقاً عل دفاتره وأوراقه وحساباته.ولو لا اهتمامه بمثل هذه الساعات في عمره لما قدم له متجره الذي يغص بالغادين والرائحين الا الندامة والخسران !.

أدعوك الى أن تسلك أي سبيل تحرر فيه فكرك مما قد يتسلل اليه، في غفلة منك أو ملاحظة، من وحي العصبية أو دوافع المصالح الزائفة المحرمة أو دواعي العقد النفسية المختلفة حتى تملك الاطمئنان الى أنك انما تسير وفق منهج من التأمل العقلي الحر.

وقد كانت هذه الوسيلة في حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هي أخذ النفس بساعات من لخلوة والابتعاد عن الناس وما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الا تعليماً وتشريعاً لأمته.

ولا تنس أن من أهم ما يعينك على دوام الفكر والذكر، الاكثار من مجالسة الصالحين والركون اليهم، وأن من أهم ما يبعدك عنهما الاستغراق في مجالس اللهو والركون الى صحبة الغافلين، والاستمتاع بمجالس يذوب فيها العمر الثمين، رخيصاً، بالخوض في لغو لا طائل منه، والعكوف على نهش لحوم ميتة بالغ القرآن في تبشيعها والتحذير منها.

ثانياً: التزام ورد دائم منتظم من قراءة كتاب الله تعالى، وما يتبعه من التسبيح والاستغفار وذكر الله تعالى.

أما قراءة كتاب الله تعالى فما أظن أنك بحاجة الى سرد ما ورد من الأحاديث الصحيحة في فضل تلاوته وتدبره ولم يقع خلاف بين المسلمين في أن التقرب الى الله تعالى بتلاوة كتباه يعد من أفضل القرب الى الله عز وجل.

وكم من ذي قلب قاس غليظ لم يلينه سوى تلاوة كتاب الله، وكم من غافل مسرف على نفسه لم يوقظه الى ما هو فيه سوى تدبر كتاب الله، وكم من عين لم تذق طعم الدموع من خشية الله تعالى الا من خلال النظر في كتاب الله.

وقد كل لكل من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ورد معين من تلاوة القرآن في كل يوم وليلة. وربما شغل أحدهم عذر ضروري عن ورده ذات يوم، فقضاه في اليوم الثاني في حسرة وألم مما قد فرط منه كما وقع لعمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه في بعض الأحيان.

وأما الذكر والتسبيح والاستغفار، فذل هو العلاج الذي وضعه الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام وكرر الأمر في كثير من أي القرآن.

فقد قال: " وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ".

وقال: " وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار ".

وقال: " واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغد والآصال ".

وقال: " واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ". وقد أجمع العلماء ـ بناء على ذلك ـ على أنه لابد للمسلم أن يتخذ ورداً دائماً من التسبيح والاستغفار وتلاوة القرآن، وأن أفضل وقت لذلك هو البكور والآصال.

فاذا عرض له عارض شغله عن أداء ورده في وقته المعتاد، كان الأفضل أن يتداركه فيما بد، في أي وقت من النهار والليل، حتى لا يكون انشغاله عنه ذريعة الى اهماله وتضييعه.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل ".

ولا تلتفت الى من يزعم لك بأن الذكر عبادة مطلقة وأن تعيين وقت خاص للعبادة المطلقة بدعة محرمة !.. فان هذا الذي يزعم ذلك انما يريد أن يقصيك عن ذكر الله تعالى من أخبث سبيل. ذلك لأن من يضع هذا الوهم في حسابه، لا يكاد يؤدي هذه العبادة العظمى في أي وقت من أوقات حياته، اتقاء للبدعة فيما يزعم !..

وربما أبصرته في هذه الأوقات الفاضلة من البكور والآصال، فرأيته يغط في نوم عميق أو يتلبس بلهو أو غيبة محرمة، دون أن يتنبه الى خطورة ما هو فيه من اثم وضلال حذر منهما كتاب الله تعالى بصريح البيان وربما كان شفيعه في ذلك أنه لا يريد أن يشغل الوقت ببدعة من الذكر في وقت معين !!..

ثم أعلم أن أثر كل من تلاوة القرآن وذكر الله تعالى عظيم في معالجة أدواء النفس وأمراضها. اذ يتكون في القلب، من الاستمرار عليهما، شعور بالرقابة الالهية على كل ما يتلبس به الانسان من التصرفات والأعمال والنيات. فما يكاديهم بعمل شيء أو ينطوي على قصد محرم حتى يدفعه هذا الشعور الى تقويم عمله وتصحيح نيته.

وتلك هلي الحراسة الالهية العظمى في حياة المسلم، وذلك هو الاحسان الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعبد المسلم ربه كأنه يراه فان لم يكن يراه فعلاً فهو موقن بأن الله عز وجل يراه.

ولا يتحقق ذلك الا بملازمة كتاب الله تعالى والاكثار من ذكره وشغل القلب بمراقبته. فهو العلاج الأعظم لتزكية النفس وكنس ما قد يرسب فيها من أمراض الكبر والحقد والحسد وحب الدنيا والتعلق بأسباب السمعة والجاه والمناصب الدنيونية الفانية.

ولا ريب أننا لا نقصد بالذكر حركة اللسان في الفم، ولا فرقعة السبحة في اليد،ولا مجرد القفز على أصوات المنشدين وأنغامهم.وانما نقصد به ما أراده الله تعالى في كتابه عندما أما بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم، وما يعلمه كل عالم باللغة العربية عندما يقول القائل: لقد ذكرت فلاناً طوال هذا اليوم.

انه ذكر القلب، وحركة الفكر، وتيقظ الوجدان.

وان كان لحركة اللسان من فائدة، فانما هي تنبيه القلب وايقاظ الوجدان، وحجزه عن الأحاديث الملهية التي قد يشتغل به ان هو فتر عن ذكر الله تعالى.

أما ان ضرب بين اللسان والقلب بحاجز، حتى أصبح اللسان يلهج بالذكر والدعاء والتسبيح، والقلب غارق في الدنيا وأحلامها وأهوائها المحرمة . فان صاحب هذه الحال لا يسمى ذاكراً ولا متعبداً وانما هو يظهر بين الناس بمظهر الذاكرين. وليس له من فائدة أكثر من أنه يجعله بين الناس كذلك !

ثالثاً: كثرة الدعاء والابتهال والتضرع لله عز وجل.

وهذا العلاج عبادة ذات أهمية كبرى، بل هو مخ العبادة ولبها، بل هو العبودية التي تعتبر أرقى مراتب القرب الى الله عز وجل.

ولقد أكد الله تعالى أمر عباده بالدعاء وأكثر من ذلك في كتابه، وجعله من أهم سمات عباده المخلصين.

فقال جل جلاله: " أدعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين "١٤[14] وقال: " فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون "١٥[15].

وقال. " ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً "١٦[16]. ووصف الخلص من عباده بقوله: " انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين "١٧[17].

وانما يستشعر الانسان أهمية الدعاء والتضرع الى الله عز وجل، عندما يشعر بحاجته الماسة الى الله تعالى، ويستيقن لا معين غيره وأن لا رجاء الا منه، فعندئذ يدعوه بقلب صادق وشعور مستيقظ خاضع.

---

[١٤][14] الاعراف: ٥٥.

[١٥][15] غافر: ١٤.

[١٦][16] الاعراف: ٥٦.

[١٧][17] الانبياء: ٩٠.

وذلك كمن وقع في كرب أطبق عليه وعجز جميع الناس عن تفريج كربه حتى يئس منهم، وعلم أن الله تعالى هو وحده الذي اذا شاء فرج كربه وأزال ضره فرفع يديه الى السماء يقول بملء فمه وقلبه: يارب.

أما من لم يستشعر هذه هذه الحاجة ولم يحس بضي أو بلاء في حياته، فانه لا يجد ما يحمله على الدعاء، لأنه لا يشعر انه بحاجة الى شيء، ولا يرى من حوله أي مكروه حتى يستنجد بالدعاء منه. وذلك كمن عاش يتقلب في حمأة المحرمات وينغمس في أمواج الأهواء والشهوات لا يشعر الا بلذاتها العاجلة وقطوفها الأولى. فلو ذهبت تنصحه بالدعاء حتى يخرجه الله مما هو فيه، لسخر منك، وجعلك في حساب من يقوله له: أدع الله على نفس بالحرمان والشقاء.

وربما رفع يده يحرك لسانه ببعض الأدعية الدارجة أو يؤمن على دعاء انسان ولكن ذلك منه لا يسمى في الحقيقة دعاء، وانما هو وتقليد له، وهو أبعد ما يكون في نظر الله تعالى عن الدعاء الذي أمر به في قوله: " ادعو ربكم تضرعاً وخفية ".

وأبرز نموذج لذلك، أولئك الذين يسبحون في حياة من الغي والآثام، فاذا أقبلت الى أحدهم تنصحه بالرشد وتذكره بالله وعقابه، رفع يده قائلاً: الله يهدينا!

انه يدعو أمامك بهذا الدعاء، ولكن قلبه يردد في الوقت نفسه عكس هذا الدعاء تماماً، اذ هو يشفق في الحقيقة على لهوه أو عصيانه أن يتخطف منه، ويود أو أن السبيل اليهما كان أعرض وأيسر وانما هو يتظاهر أمامك بهذا الدعاء ، تهرباً من نصيحتك قطعاً لسبيل الحجة عليه.

أما اذا ذاق العاصي ذل المعصية في سلوكه، واستشعر قلبه الأسى مما هو متعلق به من الذنوب والآثام، فرفع يديه يسأل الله الهداية والعون، فذلك هو الدعاء الصادق الذي أمر الله تعالى به.

ومعلوم أن الذي يعين الانسان على السير في سبيل الاستقامة انما هو توفيق الله تعالى، ولو تخلى توفيق الله تعالى عن الشاب الصالح المستقيم لا نقذف منذ تلك اللحظة الى أقصى مظاهر الانحراف.

وانما يتم توفيق الله تعالى للمسلم بأمرين اثنين:

صدق الارادة المتجهة الى الخير، واخلاص الدعاء المتجه الى الله عز وجل بالضراعة والذل.

فاذا صدق المسلم في عزمه على الاستقامة واتباع سبيل مرضاة الله، ثم ابتهل الى الله تعالى بقلب واجف وضراعة صادقة، فان الله تعالى يسوقه في طريق الهداية سوقاً، وبقيه من سوء النفس والشياطين.

وقد استوقفني شاب ذات يوم في رحاب الجامعة، وشكى الى في التياع وألم، أن نفسه تنازعه على الشر وأنه لا كياد يقوى على امتلاك زمامها والتغلب عليها، وأن حياة الجامعة تزيد من ضراوة نفسه، وناشدني الشاب أن أهديه إلى سبيل بها من عذاب نفسه.

فقلت له: أرايت إلى هذا الالتياع والرجاء اللذين تعرض بهما شكواك علي. اعرض هذه الشكوى نفسها بمزيد من الالتياع على ربك جل جلاله، وناجه وتضرع إليه في ساعة ليس بينك وبينه فيه أحد، واسأله أن

يمنحك التوفيق والقوة، فإنك إن فعلت ذلك وكررته مراراً استجاب الله دعاءك وحقق لك التخلص من عذاب نفسك بأيسر سبيل.

إن انتهاء الإنسان إلى حالة تجعله مضطراً لمد يده إلى من يعينه في تخليصه من عذاب يعانيه، ثم لا يجد من حوله إلا الله جل جلاله ـ هو جوهر العبودية القسرية التي فطر الله الإنسان عليها. وإن وقوفه في ضراعة وذل على أعتابه جل جلاله يدعوه ويسأله ويرجوه، هو جوهر العبودية الكسبية التي أمر الله الإنسان أن يمارسها.

وربما رأيت ناساً يهونون من أمر الدعاء، محتجين بأن ما يطلبه العبد إما أن يكون مسطوراً في قضاء الله أو لا فأن كان مسطوراً لم ينفعه الدعاء في طلب الوقاية منه وإن لم يكن مسطوراً لم يحتج إلى الدعاء من أصله !.

ولا نريد أن نطيل في الإجابة على هذا الاحتجاج بما قاله العلماء في كتب التوحيد، فبحثنا هنا يتسم بطابع آخر.

ولكنا نقول: إن الله عز وجل أمر عباده بالدعاء ووعدهم بالاستجابة، فقال: " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم.. " ووعد الله صدق لا يلحقه خلف. وهذا ما يهمك أنت، فما لك وللبحث فيما ليس من شأنك واختصاصك، و فيم تؤرق فكرك في أمر عائد إلى تدبير الله تعالى وعظيم قدرته وسلطانه ؟

قضاء الله تعالى حكم من أحكامه، واستجابة الدعاء وعد قطع على نفسه بإنجازه. وإنما وظيفتك أن تخضع لحكمه و تؤمن بوعده ثم تكل تدبير الأمر أليه.

ومعنى هذا الكلام الذي قلناه، أن على المسلم أن يتلمس أولاً ما قد يعانيه قلبه من الأمراض الخفية التي لا يطلع عليها غيره، ثم يستشعر خطورتها وأثرها في حجزه عن اتباع مرضاة الله تعالى، وإن تحلى بظاهر من السلوك الصالح المستقيم.

فإذا استشعر ذلك، عالجه ـ إلى جانب الدواء ين اللذين ذكرناهما ـ بالدعاء المستمر لله تعالى في ضراعة وتذلل وبقلب منكسر. وليستشعر أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأن قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله، فهو الذي يستطيع أن يشفيه من أمراضه ويخلصه من آفاته وعوائقه.

وليقدم وسيلة وشفيعاً إلى الله تعالى بين يدي ذلك، صدق الإرادة وسلامة النية وذل النفس بين يدي ربوبيته وسلطانه.

وليختر لذلك أفضل الأوقات وأقربها إلى قبول الدعاء، وليحرص على أن يستفيد من وقت السحر، ذلك الوقت الذي يكون قد هدأ فيه ضجيج العصاة وسكنت النفوس إلى لذة النوم، فتجلت من خلال ذلك رقابة الله على عباده.

حاول جاهداً أن تمسح عن عينيك غشاء النوم تلك الساعة، ثم قم فأسبغ الوضوء، وقف بين يدي قيوم السماوات والأرض مستغرقاً في ذل العبودية له، ثم ابسط يدك إليه وأنت موقن أنه يرى ذلك وضراعتك ويسمع بكاءك ونجواك، ويراقب أنين نفسك من أوجاعها. واسأله أن يطهر قلبك من أدرانه ويخلصه من آفاته، وأن يجنبك ظاهر الإثم وباطنه. وألح في الدعاء، وأكثر من الرجاء، وابك على نفسك وأيامك التي قد خلت في غفلة عن الله تعالى وفي غفلة عن مراقبة قلبك.

إنك إن فعلت ذلك، واستمر بك الأمر على هذه الحال، استجاب الله دعاءك وتدارك أمرك، وطهر سريرتك، وأورثك طعم الصدق في العبادة، ولذة الإخلاص في الدعاء.

ولكن لا بد من الثبات على هذه الحال، إذ لا يكون الفرار إلى الله تعالى من آفات النفس إلا بواسطة ذلك، فهو السلم الذي ترقى به إلى الله عز وجل، وما دمت على قيد الحياة فلا بد لك من مواصلة الصعود على السلم، وإلا فيوشك أن تنزلق بك القدم في لحظة واحدة فترجع إلى حيث كنت.

رابعاً: (وهذا علاج سلبي) تجنب أكل الحرام. فإن الجسم الذي ربي على المال الحرام، يضم ـ على الغالب ـ نفساً نزاعة إلى الانحراف والانفلات من حدود الله تعالى، وإذا انضبطت ضمن حدوده في الظاهرة، تجمعت منها الأدواء والأمراض الخطيرة في الباطن.

والمال الحرام يبدأ من سلب أموال الآخرين بدون رضاً، ثم يتنوع إلى أنواع وأشكال مختلفة حتى تنتهي عند الشبهات المختلفة التي هي مظنة الحرام.

ومن لم يستطع أن يتخلص من الشبهات، استطاع ـ إذا شاء ـ أن يتخلص من المحرمات. ومن وجد معذرة يتذرع بها بالنسبة للوقوع في الأولى لم يجد أي عذر يتمسك به بصدد اقتحام الأخرى.

وللتغذي بالمال الحرام نتائج خطيرة جداً في حياة المسلم. أهونها ما يعانيه القلب من قسوة عجيبة لا تحركه معها موعظة واعظ، ولا تذكرة مذكر، ولا ينفعه معها تحذير ولا ترغيب ولا ترهيب.اذ يقع الانفصال بذلك بين العقل والقلب، فيدرك العقل دون أن يتأثر القلب، ويخضع الأول دون أن يلين الثاني. وهيهات أن يملك العقل وحده قياده السلوك في حياة الانسان، ذلك أن الأثر الأعظم انما هو للقلب الذي هو ينبوع الرغائب والعواطف كلها.

ومن شأن التهاون في الأخذ بهذا العلاج، أن يجعل اسلام المسلم شعاراً يصطبغ به ظاهره فقط، أما الباطن الخفي فمسوق في سبل أخرى تخطها دوافع الشهوات والأهواء ونوازع النفس وطباعها الخلفية.

واذا استمر المسلم في تهاونه، وأقبل على المال الذي تطوله يده كيفما أتفق، لم يعد يفيده شيء من العلاجات السابقة التي ذكرناها. فلا تلاوة القرآن تنبهه من غفلة، ولا الأذكار والأوراد تصلح شيئاً من حاله، ولا دعاؤه يسمع أو يستجاب.

وقد روى مسلم والترمذي وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيباً، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المسلمين، فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وقال: (يا أيها آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) قال: وذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغير يمد يده الى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب له ؟!

وما أكثر المسلمين اليوم اذا عددتهم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة واستعمال المسابح في الأيدي وتعويد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة.

وما أقل المسلمين اليوم اذا عددتهم بمقايس التعفف من عن الوقوع في المال الحرام والتزام حدود الله في ذلك، وملاحظة مرضاة الله تعالى حيال ما قد يدخل في الجيب. !

وكم رأينا مسلمين، يحسبون في خيارهم ومن أفضلهم، يصوغون الكلام حلواً عذباً في الدعوة الى الاسلام وهدي،حتى اذا لاحت لأحدهم سيبل تجارة رابحة تستوجب بعض الانحراف عن ميزان الاسلام وحكمه، أسرع يقتحم السبيل غير هياب ولا وجل، فاذا ما نبهه أخ له مسلم، تأول ما لا يحتمل التأويل وصاغ في سبيل ذلك فقهاً جديداً لا أساس له ولا دليل عليه.

هذه العلاجات الأربعة ن هي السبيل الذي لا بد منه لا صلاح حال القلب وتخليصه من الأمراض الخفية، التي عبر عنها القرآن بباطن الاثم.

ومن دون استعمال هذا العلاج والاهتمام بباطن الاثم، لا يصلح للمسلمين أمر، ولا تجمعهم جامعة حق، ولا يتخلصون من عوائقهم المختلفة التي يضجون منها اليوم.

لا تعنينا التسميات

وبعد: فما اسم استعمال هذه العلاجات التي تحدثنا عنها ؟

هل هو التصوف ؟.. أم هو السلوك ؟!. أم هو التربية ؟ ربما صح أن نستعمل أي سام من هذه الأسماء الثلاثة، وربما صح أن نجد لذلك اسماً أو أسماء أخرى، ولا حرج في ذلك ولا اثم.

فقد سماه البعض تصوفاً كجمهور كبير من المسلمين الذين أهمهم بحث هذا الأمر، وقد سماه بعضهم بالسلوك كالامام ابن تيمية رحمه الله١٨ [18]، وكل ذلك اصطلاح وليس في الاصطلاحات من حرج.

ولكن اذا دار الأمر بين الأفضلية، فلا ريب أن أفضل الأسماء وأشدها ارتباطاً بالمسمى انما هو " الاسلام ."

---

[18]١٨ انظر الجزء العاشر من فتاوى ابن تيمية.

اذ الاسلام، بمصدريه: الكتاب والسنة، هو الذي نبهنا الى خطورة الأمراض الخفية المستكنة في أعماق النفس، وهو الذي أرشدنا الى العلاج وعلمنا كيفية استعماله.

وقد كان لنا من سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلوك أصحابه الذين ساروا على نهجه، أعظم نموذج تطبيقي لهذه الحقيقة.

وهل الاسلام في جوهره أكثر من هذه الحقيقة ذاتها ؟!

وشيء آخر.. هو أن " الاسلام " هو الكلمة الوحيدة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمضمون كتاب الله تعالى وسنة نبيه، بل هو الاسم الدال على هذه المضمون، ففي التعبير بكلمة " الاسلام" تحقيق للرقابة التي يجب أن توفر لهذا العلاج وطرق استعماله، وتحذير من أن يتسلل اليه ماليس من مضمون الاسلام في شيء.

وبالمقابل، فان في تسميته بالأسماء المختلفة الأخرى ما يقصيه . ولو من حيث الشكل . عن دائرة الاسلام، ولا يبعد أن تتسلل اليه في ظل من هذا الاقصاء أمور ليست من جوهر الاسلام وحكمه.

وقد رأينا كيف تيسرت سبل البدع والمنكرات الى هذا الجانب الجوهري العظيم من الاسلام، بعد أن أقصى عنوانه الحقيقي السليم ثم وضع تحت أسماء وشعارات وعناوين أخرى.

وشيء ثالث.. وهو أن في الناس اليوم من يحسب أن اسم التصوف يطلق على مذهب من مذاهب الاسلام، وأن المتصوفة ليسوا الا فرقة من بين فرقهم المختلفة. وقد استغل هذا الوهم، أو قابلية هذا الوهم،كثير من المستشرقين فعنوا بالتصوف ودراسته،تحليل فلسفته، وراحوا يضعونه في اطار يكسبه سمة الذاتية والاستقلال، ليعمقوا أسباب هذا الوهم وليخيلوا الى المسلمين أن أرباب هذا السلوك فرقة أبدعت لنفسها هذا النهج المعين في مقابل ما أبدعه سائر المسلمين من نهج آخر مختلف عنه !

ولا ريب أن هذا الوهم ظهر في بعض الأحيان بمظهر الحقيقة، وذلك بسبب ما دخل في قوامه (عند البعض) من الاختراعات والمنكرات التي ليس من الاسلام في شيء.

كل هذا يحملنا عل أن لا نستبدل بالاسلام أي اسم آخر لأي جزء من مضامينه وحقائقه.

ولا أفهم أي وجه للتعصب عند اسم التصوف، اذا كنا مجمعين على ضرورة التحلي بمضمونه الاسلامي العظيم !.

ولكن الانصاف يقضي بأن نقول ان جزءاً كبيراً من تبعة هذه التسمية وشيوعها انما يناط بأولئك الذين يتهاونون بأمر اصلاح الباطن واتخاذ الوسائل المشروعة له.

ويقفون موقف المعارض لما يسمى بالتصوف في مجموعه.

ان أحدهم لا يجد لحال أولئك الذين يأخذون أنفسهم بملازمة الأذكار والأوراد ويسلكون مسلك الرياضات المشروعة لرد غوائل النفس عنهم ـ الا اسم التصوف. وان أحدهم لا يرضى أن يسير في طريق هؤلاء السالكين، لأنه يحسبه ـ في وهمه ـ شيئاً زائداً على الاسلام !!..

فيمضي ينعت هذه العلاجات التي وصفناها والحديث عن الأمراض الخفية التي نبهنا اليها باسم آخر غير اسمه الحقيقي. ثم يمضي يحرم حياته الاسلامية من جزء كبير وخطير من المضمون الاسلامي بسبب هذا الوهم الخاطىء العجيب.

ولو أن هؤلاء تأملوا، فتنبهوا الى أن السعي الى اصلاح النفس وسلوك السبل والمشروعة الى ذلك، انما هو جوهر الاسلام وروحه، ولو أن أولئك الآخرين تأملوا أيضاً فتنبهوا الى أن هذه السبل التي يأخذون أنفسهم بها ليست شيئاً أكثر من الاسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يسموه الا باسمه الحقيقي ـ اذا لما كان لهذا الذي يسمى بالتصوف أي هيكل ذاتي مستقل في وهم أحد من الباحثين، ولوجد المسلمون أن في أسم " الاسلام " ما يتسع للتعبير السليم عن كل جانب من جوانبه وفرع من فروعه.

التصوف الأخلاقي التصوف الوجداني

كل هذا الذي قلناه انما يدخل تحت ما يسمى بالتصوف الأخلاقي.

وهو في الحقيقة عبارة عن الخلق الاسلامي الذي جاء به الاسلام وخط الوسائل التربوية الحكيمة له.

أما القضايا الأخرى التي تدخل تحت ما يسمى بالأحوال والشهود والفناء والبقاء ونحو ذل، فانما هي وصف لحالات وجدانية يتدرج فيها أولئك الذين يأخذون أنفسهم بترويض القلب على المراقبة الدائمة لله تعالى، وعدم الانشغال عن ذكره بشيء من مشاغل الدنيا ومظاهرها، فان أحدهم اذا استمر مدة على هذه الحال، ضؤلت أمامه شواغل الدنيا وأخذ يظهر له من خلالها عظمة الخالق لكل ما يتصف به من صفات الكمال، وربما ازداد لديه هذا الشعور تأثيراً وقوة فيذهل عن الكون بالمكون ويغيب عن الوجود بالموجد وذلك ما يسمى عندهم بالفناء.

فاذا استمر في سلوكه ومراقبة قلبه وأحواله الباطنة طبق هدي الكتاب والسنة وأحكامهما، عاد مرة أخرى الى اليقظة والانتباه للدنيا وأحوالها مع بقاء قلبه مشدوداً الى الخالق جل جلاله، فهو يتعامل مع الدنيا دون أن يتأثر بها، ويختلط بالناس ويعاشرهم دون أن يشغله ذلك عن الله تعالى. وذلك ما يسمى عندهم بالبقاء. وتلك هي المنزلة التي اتصف بها الأنبياء والصديقون وتحلى بها أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، اذ كانوا أكمل قلوباً وأقوى احتمالاً.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله في كتابه القيم (العبودية) الفناء ومعناه فقال: " هو الفناء عن شهود السوى، وهذا يحصل لكثير من السالكين، فانهم لفرط انجذاب قلوبهم الى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وغير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون به... فإذا قوي على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجودة عن وجوده، وبمشهودة عن شهوده، وبمذكورة عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته.. ".

ثم قال: (وهذا الفناء كله فيه نقص، وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد عصر الصحابة).

فإذا علمت هذا نقول:

إنه لا يجوز للمسلم الذي يرى تقصيره في جنب الله، ويلمس أمراضه القلبية التي تبعده عن الله تعالى، أن يشغل شيئاً من وقته بالحديث عن التصوف الفلسفي والوجداني فيعكف على دراسة أحوال القوم وشرح مقاماتهم المختلفة التي تحدثنا باختصار عنها.

فإن هذه الأمور أذواق لا تفهم إلا بمعاناتها ولا نستفيد منها علماً يقرأ أو يحفظ وإنما نستفيد منها واقعاً إسلامياً صحيحاً يحيا فيه الإنسان.

ولو ذهبت تتحدث عمراً كاملاً عن مواجيد أصحاب الأحوال وتحليل كلماتهم وتتبارك بشطحاتهم، فأن شيئاً من ذلك لا يقربك إلى الله تعالى شروى نقير، ما دمت غير ملتفت إلى ما تعانيه نفسك من أمراض الكبر،والحسد، والتعلق بالدنياً، والعجب، والرياء، والضغائن ونحوها.

وما رأيت أعجب من حال أناس تركوا من التصوف ما يمثل جوهر الإسلام ولبه، مما كنا نخوض في بحثه في الصفحات الماضية، وراحوا يعكفون منه على دراسات فلسفية لا يفهمونها، ويخوضون في البحث عن مواجيدً وأحوال ليسوا من أهلها، ويرد دون شطحات فاه بها بعض من عانى من هذه الأحوال ذوقاً ولم يصطنعها تكلفاً. فلئن كان أولئك معذورين (من أجل هذا) بنطقهم بها فإن هؤلاء ليسوا معذورين بتقليدهم فيها وباتخاذ كلماتهم تلك موضوع درس ومحط بحث وينبوع فائدة ! !..

إنني أدعو نفسي، وأدعو جميع إخواني وأصحابي، وأدعو هؤلاء جميعاً إلى الإقبال على تزكية النفس.. وتزكية النفس هي الغاية التي تطوف حولها شرعة الإسلام، وهي المرمى البعيد لجميع السالكين والمتصوفين إلا من انحرف منهم وشد عن الصراط، وهي الباب الذي يدخل منه المسلم إلى سبيل مرضاة الله، وهي العلاج لكل بلاء، والمخرج من كل فتنة.

خذوا، يا هؤلاء، من ابن عربي وصاياه واتركوا له فتوحاته، اقرؤوا من كتبه " معارج القدس في محاسبة النفس " الكتاب الذي يكشف عن عيوب المسلمين وما يختبئ خلف مظاهر هم الطنانة الرنانة من

النقائص والأمراض الخطيرة ومظاهر الرياء والسمعة وحب الدنيا وحب الرئاسة . ودعوا له أحواله وشطحاته وما لا تفهمون من أقواله.

حتى إذا ذابت من نفوسكم غوائل الدنيا وأمراضها، فلم تعودوا تتأثرون بعصبية باطلة، ولم يعد من فرق عندكم بين الدنيا إذا أقبلت أو أدبرت، وبين من يكيل لكم عبارات المديح ومن يرميكم بسهام القدح والتجريح . حان لكم عندئذ أن تدخلوا في هذا الباب الثاني وأن ترتعوا في هذا الميدان الخطير.

مشكلتنا أخلاقية وليست فكرية

ومعنى كل هذا الذي ذكرناه أننا نعاني من مشكلة تتعلق بالخلق والوجدان، وليس لها أي تعلق بالقناعة أو الفكر.

والعجيب أن في الناس من يشعرون بالمشكلة، ويتنبهون إلى هذا الخطر الأكبر في حياتنا، ولكنهم بدلاً من أن يعالجوه بهذه السبل التي ذكرناها، يعالجونه بمزيد من الأبحاث الفكرية والنظريات الفلسفية يطرحونها في ميدان المناقشة والدرس. وكأن المشكلة عقدة جهل تستحكم بالعقل وليست مرضاً خطيراً تعاني منه النفس !.

فماذا يجدي أن نسهب في شرح " المجتمع "، أو نفتن في كشف المخططات العدوانية التي يسير عليها أعداء الإسلام وأرباب الغزو الفكري، أو تهتم بعرض المزيد من منهجية الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية . وإن البلاء الذي يعانيه المسلمون ليس الجهل بشيء من هذا كله وإنما هو المرض العضال الذي يستحكم بنفوسهم ؟ !.

ليس بالمسلمين حاجة بعد اليوم، إلى أي مزيد من هذه الدراسات الفكرية، فالمسلمون . على اختلاف ثقافاتهم . أصبحوا يملكون من الوعي في هذه النواحي ما ينسج لهم الحصانة الكافية، لو أن الأمر كان موكولاً إلى الوعي وحده.

وإنما هم بحاجة بعد اليوم إلى القوة الهائلة التي تدفع بهم إلى التنفيذ. وهيهات أن يكون أمر التنفيذ بيد الفكر أو العقل وحده.

والقوة الهائلة التي يحتاجون إليها إنما هي قوة الأخلاق. !

إن الملحد الذي يمارس أمامك حياة التحلل والإلحاد ليس مشدوداً إلى حياته تلك بسبب فكري مجرد كما قد تظن، ولكنه مشدود إليها بأهواء نفسية مستحكمة.

وإن العالم الغربي الذي يخوض حمأة المادة ويتقلب في أوحال الرذيلة، ليس مسوقاً إلى تلك الهاوية بسائق فلسفة أو نظرية معينة، وإنما هو مسوق إليها بدافع مرض خلقي يعانيه، وإن هو حاول أن يخفي هذه الحقيقة إلى أمد.

أعلم شاباً هداه الله بعد انحراف وإلحاد، التف من حوله أصدقاؤه وأولياء أمره السابقون يناقشونه ليستجروه مرة أخرى إلى ماضيه معهم. ولما أسقط في أيديهم من باب النقاش والبحث الفكري، قالت له زميلة سابقة:

ولكنك شاب في مقتبل العمر، فلتمتع شبابك بالحياة، " وللمشيخة " وقت لا حق فيما بعد !

وأعلم أن رجلاً باكستانياً يعيش في إحدى جهات أوربا يدعو إلى الإسلام، ولما سئل عن مدى نجاحه في الدعوة هناك، قال: إن الرجل الأوربي لا يعوزه الدليل على معرفة الحق، إنه سرعان ما يؤمن بالحق إيماناً فكرياً صادقاً، ولكن المعذرة التي تشده إلى الوراء دائماً هي التحلل الذي استمرأته نفسه وقامت عليه حياته، فهو لا يجد في أفكاره التي يؤمن بها ما ينجده للتخلص من سلطان نفسه !.

إن مثل هؤلاء الناس لا ينجيهم من المشكلة التي يعانونها أن تحشو أدمغتهم بمكتبات من النظريات والأبحاث الفكرية عن الإسلام، وإنما يفيدهم شيء واحد، هو أن تشعل فيهم كوامن الوجدان، بما لديك من لوعة القلب.

لوعة القلب.. هي البلسم الذي لا يغني مع فقده أوقار من الكتب تفيض بالأفكار الدقيقة والتحليلات الرائعة.

لوعة القلب.. هي السر العجيب الذي يقلب حياة الإنسان فيقرب له البعيد، ويلين له الحديد، ويجمع أهواء النفس من شتات، وينسيك طعم الدنيا وأهواءها بما يذيقك من حلاوة مراقبة الله وشهوده.

لوعة القلب هذه، لا تأتي من إرهاق الفكر لاعتصار مزيد من النظريات والأبحاث، وإنما تأتي من إرهاق النفس بمزيد من العبادات، والمثول بضراعة أمام باب الله تعالى في الأسحار.

هذه اللوعة.. هي التي افتقدها محمد إقبال بين المسلمين على الرغم من بحثه الطويل عنها وسط ضجيج نقاشاتهم وروائع أبحاثهم وعظيم مكتباتهم !.

أما الأفكار، والبحوث، والدراسات.. فكل ذلك أمر مفيد لا بد منه، ولكنه لا يعدو أن يكون مرحلة من مراحل الطريق١٩ [19].

---

[١٩][19].. أجل.. كل ذلك امر مفيد لابد منه. هذا ما نقوله ولكنا نضيف الى ذلك ان الابحاث العلمية والدراسات الفكرية انما تعد وسيلة الى هدف. فاذا لم يتحقق الهدف فان الوسيلة تفقد بطبيعة الحال قيمتها!.. كم من رجل يتحلى بوسيلة العلم واحكامه وقواعده، ويتمتع بلسان يملك من البيان سحراً، ولكنك تراه في سلوكه رأساً في النفاق، فاي قيمة اذاً لعلمه الغزير وفكره البصير؟!.. ولو نظرت، لرأيت ان اخطر ما قد افسد مجتمعنا الاسلامي انما هو نفاق الكثير من علمائه لا جهل بعض من افراده.

إن الأفكار والأبحاث محدودة، مهما اتسع نطاقها، ومن العبث أن نعود فندرس هذه الأفكار من أولها كلما انتهينا بالبحث والدرس إلى آخرها، لا نتجاوز هذه المرحلة ولا نربطها بأي جهد آخر سواها، ولا نحرك نفوسنا شبراً عن الأرض التي التصقت بها والأهواء التي تعلقت بها.

على أن هذا الذي نقرره يعد مسألة من المسائل الفكرية المتعلقة بالإسلام، إذا ما لا حظنا الجانب التأملي منه. غاية الأمر أنه يعتبر الحلقة الواصلة بين آخر الدراسات النظرية وأول المرحلة التطبيقية. فلتكن لهذه الحلقة الفكرية نصيبها الكافي من دراساتنا وأبحاثنا الإسلامية، حتى لا نتحرك حركة لولبية في أرضنا وحتى لا يستجرنا الخصوم بما يختلقونه كل يوم من مشكلة جديدة إلى سلسلة لا تنتهي من الدراسات والردود والمناقشات.

والخلاصة..

وخلاصة كل ما ذكرناه، أن المسلمين يشكون اليوم من أنهم متفرقون متدابرون، ويتساءلون عن سبيل لجمع كلمتهم وتوحيد سبيلهم.

ونقول: إن الذي فرق أمر المسلمين إنما هو الحواجز القائمة في نفوسهم، ومن دون زوال هذه الحواجز لا يجتمع لهم أمر ولا يصلح لهم حال.

هذه الحواجز أقوى شأناً من المجالس الجامعة واللقاءات المتكررة والشعارات الواحدة.

وقد فرغنا من شرح هذه الحواجز وأنواعها وآثارها الخطيرة في حياة المسلمين. ثم ذكرنا العلاج الذي يذيب هذه الحواجز ويمحوها من النفوس.

وإذا أردنا اختصار الطريق في الكلام، فلنقل إن الحمض الذي يذيب هذه الحواجز كلها إنما هو: الإخلاص.

فإذا توفر الإخلاص لدين الله في القلب، زال الكبر من النفس وحل التواضع مكانه، وزالت الأحقاد والبغضاء منها وحل الود والوئام مكانهما، وزال حب الدنيا والتطلع إلى مناصبها ومغرياتها وحل مكان ذلك التطلع إلى مرضاة الله والنجاة من عقابه و وعيده، وزالت العصبية بألوانها وأشكالها المختلفة وحل مكانها

وشيء آخر نضيفه، وهو ان عملية الفهم والعلم ضرورة حتمية بعد التأمل في الدلائل والمقدمات، فان الذي يتأمل في (١+١) لا ان يسوقه عقله الى اليقين بانه =٢. ولكن مرحلة التنفيذ والتطبيق لمقتضى ذلك العلم فعل اختياري، تحول بينه وبين الانسان في اكثر الاحيان عقات كثيرة متنوعة، هيهات ان تتذلل وتتحطم الا من وراء جهود شاقة عظيمة الا وهي جهو التربية والاخلاق. وانظر الى هذا المعنى، كم هو بارز ودقيق في قوله تعال: (وجحدوا بها واستيقنها انفسهم ظلماً وعلواً) لقد وجد اليقين الفكي، ولكن ها هو الجحود السلوكي قد خنقه بدفع من كبرياء النفس وعلوها. اذاً فعليك ان تحطم كبرياء النفس اولاً، وان تصعد بها الى مستوى الطمأنينة للحق، ليتفاعل اليقين العلمي معها سلوكاً وتعاوناً وانسجاماً، وعندئذ فقط تحل المشكلة حلاً سليماً كاملاً.

الولاء للإسلام من حيث هو. والإخلاص كلمة سهلة على اللسان، حبيبة إلى القلوب مطربة للأسماع. فهي ـ من أجل ذلك ـ من أكثر الكلمات تداولاً وتكراراً. ولكن معناها من أعظم المعاني أهمية في الحياة، ومن أبعدها أثراً على المجتمع، ومن أشقها على النفوس عند التطبيق.

إلا أنها فقدت الكثير من أهميتها وخطورتها وبعد تأثيرها، لكثرة ما يتاجر بها المدعون ويتحلى بها الكاذبون وينادي بها أصحاب الشعارات الفارغة.

إن الإخلاص إذا استقر في القلب، استقر حب التضحية معه في النفس.

وبماذا يضحي المخلص ؟.. إنه لا جرم يضحي، بعوائقه ومصالحه و آفاته النفسية في سبيل الحق الذي أخلص له.

وعلى الذي يشكو من أنه لا يجد سبيلاً للتضحية بهذا كله، لشدة تعلقه بذاته، أن يروض نفسه على التضحية باتباع ما ذكرناه.

أما الذي لا يريد أن يفعل هذا ولا ذاك، فليقلع عن دعوى الإسلام والتمسك به، وليكف عنا ضجيجه المتواصل حول التألم لفرقة المسلمين وتدابرهم.

إن الذي لا يرى ما يمنعه من تحوير حكم الله تعالى والتلاعب به كيفما شاء، استبقاء لمنصب دنيوي يتعلق به أو سعياً إلى هوى من أهوائه النفسية، لا ينبغي أن يتحدث بكلمة واحدة عن سر تفرق المسلمين وتدابرهم. فما هو من بلائهم في شيء وليس في قلبه عليهم أي توجع أو عذاب.

والذي يعيش في الدنيا ليربي فيها كبرياءه ويغذي أنانيته ويدافع عن عصبيته،ما ينبغي أن يلبس على نفسه وعلى الناس فيخلط الغيرة على الدين بالغيرة على كبريائه، ويخلط الدفاع عن الحق بالدفاع عن عصبته أو عصبيته.

والذي يفهم أن الإسلام ما ينبغي أن يكون فيه تبتل في النفس وعبودية في القلب وذكر يفيض به الوقت، ودعاء واجف في الأسحار، وإنما يريده (فيما يتمناه) قولاً.. وحركة.. وتخطيطاً.. فقط ـ يجب أن لا يبحث عن معالم إسلامه هذا بين آيات كتاب الله وسنة رسوله وحال سلفنا الصالح من قبل، وإنما عليه أن يبحث عنها بين أرباب المذاهب والأفكار الحديثة، فمن عندهم فقط يستطيع أن يستورد قوالب إسلامه الذي يريد.

والذي يرغب أن لا يكون الإسلام أكثر من انقطاع في المساجد أو الزوايا، وأن لا يكلف أهله أكثر من أوراد تتكرر مع كل صباح ومساء، وقفز وإنشاد يمتعون بهما النفس على وهم أنهم يصلحون بهما القلب ـ يجب أن لا يردد من القرآن آيات الجهاد، وأن لا يتذكر من سيرة رسول الله صلى عليه وسلم سعيه الرائع العظيم في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي وحكم الإسلام، وأن لا يتذكر أنه عليه الصلاة والسلام ساد هذا المجتمع الإسلامي العظيم ثم سلمه أمانة إلى أجيال أمته من بعده.

أما الذي فهم الإسلام كما أنزله ربه عز وجل: إيمان بالله وحده، ويقين بأنه عبد مملوك لهذا الإله الواحد الأحد، واعتقاد بأنه مخلوق في هذه الدنيا ليكون عبداً له عز وجل بالكسب والاختيار كما قد خلقه عبداً له بالجبر والاضطرار، واعتقاد بأن مصيره إلى الله وأنه سيلاقي جزاء ما قدم، ثم عمل دائب بعد ذلك على دفع النفس الأمارة باسوء في مدارج الإصلاح والقرب إلى الله، وعلى دفع المجتمع الذي هو فيه إلى صعيد الحكم بما أنزل الله ـ فهذا هو الذي يعتبر فهمه وسلوكه نواة صالحة لوحدة إسلامية صالحة، وعلى هذا المحور يمكن أن يجتمع أمر المسلمين، ومن هذا المنطلق ينصر الله جماعة المسلمين ويمد هم بالتأييد والعون.

فلنفترق على عهد

وبعد، فأنا أدعوك ـ أيها القارئ ـ ونفسي، إلى سبيل لا يجعل حظي وحظك من هذا الكتاب مجرد رصف للقول وتحسين للكلام، ولا مجرد قراءة له أو استطلاع.

أدعوك إلى أن نفترق على عهد نلتزمه بين يدي الله عز وجل.

عهد يكون في الدنيا سر سعادتنا، وقبساً من النور في طوايا يوم عرض الحساب، وقدماً راسخة لنا عند اجتياز الصراط.

تعال نفترق على هذا العهد:

أن نستيقظ مع فجر كل يوم ـ إن فاتنا التيقظ قبله ـ ونبدأ صفحة اليوم بأداء صلاة الفجر مع الجماعة الأولى في أقرب مسجد، ثم نظل في إقبال على الله تعالى ذاكرين مبتهلين، إلى أن تشرق الشمس.

أن تتحول ـ عند سماع صوت الأذان ـ أينما كنا ومهما كانت ظروفنا وأعمالنا ـ إلى أقرب مسجد ممكن فنصلي الفريضة مع الجماعة الأولى. فلن تضر مخاضة الدنيا مسلماً يلوذ منها ببيوت الله في اليوم والليلة خمس مرات.

إن نبذل كل جهد في سبيل أن لا ننفق العمر الثمين إلا بطاعة لله مبرورة، أو سعي مشروع ابتغاء دراسة أو رزق، أو راحة مباحة عقب ملالة أو نصب.

إذا أقبل الليل وأوى كل منا إلى فراشه، فليذكر أنه ربما كان يستقبل ضجعة لا يستفيق منها، وأنها ربما كانت آخر عهده بالدنيا، وليسترجع عندئذ ساعات عمره الحوالي، وما قد أضاعها به من اللهو والعصيان،

ثم ليستغفر الله منها بقلب متأثر نادم، وليقرأ المعوذتين والإخلاص والكافرون وبقية الأذكار الواردة٢٠[20]، ثم ليحاول أن لا يغمض النوم عينيه إلا وهو مسيح مستغفر ذاكر.

إذا أقبلت إليك الدنيا بخيرها ونعيمها أو بمصائبها وشرورها، فلا تنس الحقيقة التي هي ملء الكون كله: أن لا معطي ولا مانع ولا نافع ولا ضار إلا الله عز وجل وأن الناس لا يملكون من أمر أنفسهم ولا من أمر بعضهم لبعض شيئاً. ثم علق القلب به وحده، شاكراً لأنعمه، صابراً على ابتلائه، ضارعاً عند بابه.

إذا انفتلت من صلاتك وانتهيت من أورادها، فلا تتحول عن مكانك حتى تبسط يديك إلى الله عز وجل في دعاء واجف نابع من الأعماق، مقرون بالذل والضراعة تسأله فيه كل حاجاتك، و تستدفعه كل مخاوفك، وتستغفره من سيئات أعمالك،فلا خير في صلاة بتراء لا يختمها العبد بذل الاستجداء من مولاه.

إذا استشعرت سخط الناس عليك، فاجهد أن يكون لك من مرضاة الله عنك خير عزاء يشغلك عن الالتفات إلى سخطهم، ولتعلم أن ذلك خير لك من أن يرضى الناس عنك بسخط الله.

إذا نازعتك نفسك الحوض في غيبة أخ مسلم لك، فاذكر أن فيك من العيوب ما لو كشف الله ستره عنك لجعل منك ومنها حديث الناس في مجالسهم و أسمار هم. فإذا ذكرت ذلك، فسيحملك الحياء من الله . إن كانت لديك منه بقية . على التحول عن الحوض المحرم في إعراض الناس، والاشتغال بشكر الله على ما مد من رواق ستره عليك.

إجهد أن تجعل رأس مالك الذي تقد مه غداً بين يدي الله، قلباً نقياً طاهراً من درن الحقد والأضغان. فقليل من الطاعات قد يكفي مع قلب طاهر سليم. ولكن كثيراً من الطاعات لا يغني مع قلب حاقد سليم.

إذا راودتك نفسك على اقتراف شيء من المحرمات أو جاذبتك عن تنفيذ شيء من بنود هذا العهد، فاذكر (إذا كنت مؤمناً بالله) ضجعة الموت، فأنه ما ذكر في كثير من المعاصي إلا قللها، وما ذكر في قليل من الطاعات إلا كثرها.

وادع الله لأخيك أن يوفقه للثبات على هذا العهد، ولك مني مثل ذلك. والحمد لله رب العالمين.

٢٠[20] كان من دعائه صلى الله عليه وسلم عندما يأوي الى فراشه: "الحمد لله الذي اطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي ولا مؤوي".